

أحاديث روسية

أحاديث روسية

تأليف
إلياس أنطون

المحتويات

٩	مقدمة
١١	الطَّمَعُ قَلَمًا جَمَعَ
١٥	الْجَزُؤُ يَحْدَى فَيَلَا
١٧	النَّمْلَةُ
١٩	الْحَمَلُ الْوَدِيعُ
٢١	الْغَدِيرُ الصَّغِيرُ
٢٣	الثَّعْلَبُ وَالْمَرْمُوطُ
٢٥	الذُّئْبُ يَنْشُدُ السَّلَامَ
٢٧	الْبِرْمِيلُ الْفَارِغُ وَالْبِرْمِيلُ الْمَلَأُ
٢٩	الْبِرْمِيلُ يَنْصَحُ بِمَا كَانَ فِيهِ
٣١	السُّلْطَانُ الْجَدِيدُ
٣٣	الْمُهْرُ يَنْتَقِدُ الْفَلَّاحَ الْمُبْدِرَ
٣٥	تَعْلِيمُ الْأَمْرَاءِ
٣٧	كَمَا تَزْرَعُ تَحْصُدُ
٣٩	الْخَنْزِيرُ الْكَبِيرُ
٤١	مُكَافَأَةُ السَّنَجَابِ
٤٣	الثَّقَّةُ الْعَمِيَاءُ
٤٥	الْفَلَّاحُ وَخَادِمُهُ
٤٧	الْوَزَّةُ الْغَاضِبَةُ
٤٩	الْحِمَارُ يُقْلَدُ وَسَامًا

٥١	الدُّبُّ وَالْفَارَةُ
٥٣	الطَّيَّاحُ وَسَنَوْرُهُ الْمَحْبُوبُ
٥٥	الْأَفْعَى تَسْتَعْطِفُ الْفَلَّاحَ
٥٧	الدُّبَابَةُ الْمَغْرُورَةُ
٥٩	النَّارُ! النَّارُ!
٦١	زَهْرَةُ الْحَقْلِ الزُّرْقَاءُ وَالْخُنْفَسَاءُ
٦٣	مُعَاهَدَةٌ صِدَاقِيَّةٌ وَعَدَمُ اعْتِدَائٍ
٦٥	صَيَّادُ الْفَرَّاشِ
٦٧	الْحَصَاةُ وَالْمَاسَةُ
٦٩	الْغُرَابُ وَالْبُومَةُ
٧١	أَبُو الْأَشْبَالِ يَصْطَفِي فِيلاً
٧٣	الْعُقَابُ وَالْخُلْدُ
٧٥	النَّقْدُ الْأَثْرِيُّ
٧٧	الْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ
٧٩	الدُّبُّ فِي بَيْتِ الْكِلَابِ
٨١	الْبُخَيْلُ وَالْكَنْزُ
٨٣	الْغِرَارَةُ الْمَغْرُورَةُ
٨٥	الْفَلَّاحَانُ وَحَظُّهُمَا
٨٧	الْكَلْبُ وَالْحِصَانُ
٨٩	الْقَرْدُ يَطْلُبُ التَّنَاءَ
٩١	الثَّلَاثَةُ الْأَصْحَابُ
٩٣	الْحَجَرُ يَغَارُ مِنَ الْمَطْرِ
٩٥	الْغُرَابُ الْقَدِيرُ
٩٧	الْفَلَّاحُ الْحِمَارُ
٩٩	أَبُو خَالِدِ السَّخِّيِّ
١٠١	الطَّحَّانُ الْغَبِيُّ
١٠٣	الْمُزْنَةُ الْفُخُورَةُ
١٠٥	الدُّبُّ وَالشَّهْدُ

المحتويات

١٠٧	الْقَرْدُ يُبْسُ النَّظَارَاتِ
١٠٩	حَامِيهَا حَرَامِيهَا
١١١	الْعُقَابُ وَالْعَنْكَبُوتُ
١١٣	الْكُوكُو وَالْحَمَامَةُ
١١٧	الْمُوسِيقِيُّونَ
١١٩	الْكِرْمَةُ وَالْبَلُوطَةُ
١٢١	الْقَرْدُ فِي الْمِرَاةِ
١٢٣	الْفَارُ وَالْوَرْدَةُ وَالسَّمَكَةُ وَالْحَنْجَلُ
١٢٥	الْغَنَمُ وَالذَّنَابُ
١٢٧	الْقَرَوِيُّ يَسْتَجِدِّي
١٢٩	الذَّنْبُ وَجَزْوُهُ
١٣١	الْفَلَاخُ وَاللَّصُّ
١٣٣	الْأَفْعَى الشَّرِيرَةُ
١٣٥	ظِلُّ الْعَبِيِّ

مقدمة

بقلم كامل كيلاني

طلب إليَّ الصديق العزيز الأستاذ إلياس أنطون إلياس أن أراجع هذا الكتاب وأقدم له، ولم يكن أشهى إلى نفسي من أداء هذين الواجبين.

فأما مراجعة الكتاب فقد وجدتُ فيها ألواناً وفنوناً من المتع العقلية، أذكرتني ما قرأته من طرائف «ابن المقفع» في «كليلة ودمنة»، وبدائع «لافونتين»، وروائع «إيزوب»، ورأيتُ أمامي ثروة من الحكم الأصيلة، تُصاغُ في وجازاتٍ قصصية بارعة، فتحوي في كلماتها القليلة من جليل المعاني نفائس وتوجيهاتٍ تضيق بالتعبير عنها مُطوّلاتُ الأسفار وضحامُ المجلدات، ولا عجب أن تَرُجِحَ الدرّةُ — على صغر حجمها وضآلة جرمها — أضعاف وزنها من الذهب.

وأما قابسُ هذه الحكم، وناظم عقدها، فهو مُستغْن عن التعريف بما بدّله من جهود موصولة أتت، ولا تزال، تؤتي ثمارها كل يوم، فقد أسهم صاحبها في بناء نهضة الشرق الثقافية بأوفى نصيب، ولا زال الجميع يذكرون ما أفادوه من «معاجمه العصرية» من ثمرات لغويةٍ مُيسّرة الجني، دانية القطوف، وما أفادوه مما نشره، ولا يزال ينشره، للصفوة المُختارة من أعلام المؤلفين والمترجمين.

أحاديث روسية

وقد عَرَفَهُ شيوخ العصر — منذ حدثتهم — كما عرفه شباب الجيل، بما أسَّهَمَ في
وَضَعُ الأساس الثقافي، وما بَدَّلَ في سبيل الفصحى من جهود مُضْنِيَّةٍ، أجزَّها عند الله.
هذا بعض ما يقال في هذا الأثر النَّفَّيسِ، وقابسه البارِعِ، وحسبُكَ من القِلادة ما
أحاط بالعنق، كما يقول المثل العربي القديم.

الطَّمَعُ قَلَمًا جَمَعَ

طَافَ الشَّحَاذُ مُنَوَكِّئًا عَلَى عُكَّازَتِهِ الطَّوِيلَةِ، يَتَسَوَّلُ مُتَنَقِّلًا مِنْ بَابٍ إِلَى بَابٍ، حَامِلًا تَحْتَ زِرَاعِهِ كَشْكُوْلَهُ الْعَنِيْقِ الْبَالِي؛ لِيَلْقَى فِيهِ مَا يَجُودُ عَلَيْهِ بِهِ الْمُحْسِنُونَ، فَكَانَ يَدْلُفُ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ، مُسْتَجِدِّيًا «أَهْلَ الْخَيْرِ وَالْإِحْسَانِ» بِندَاءَاتِهِ الْمَأْلُوفَةِ، وَأَدْعِيَّتِهِ الْمَعْرُوفَةِ؛ كَأَن يَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ أَنْ «يَجْعَلَ دَارَ الْمُحْسِنِينَ عَامِرًا»، أَوْ يُذَكِّرَ السَّامِعِينَ بِأَنَّ «مَنْ قَدَّمَ إِحْسَانًا بِيَدَيْهِ التَّقَاهُ»، أَوْ بِأَنَّ «الدُّنْيَا إِلَى زَوَالٍ، وَكُلُّ مَا عَلَيْهَا فَنَانٌ، وَلَا يَبْقَى مِنْهَا غَيْرُ وَجْهِ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»، أَوْ بِأَنَّ «الْقَنَاعَةَ كَنْزٌ لَا يَفْنَى» أَوْ بِأَنَّ «مَا عِنْدَ النَّاسِ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ!»^١ وَكُلَّمَا مَرَّ بِدَارٍ أَخَذَ يُنَاجِيهَا بِمَا يَبِغُّ لَهَا مِنَ الْأَرَاءِ الْفَلَسَفِيَّةِ الَّتِي تَتَّصِلُ بِالْأَنْظِمَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَعُيُوبِهَا، خُصُوصًا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَغْنِيَاءِ الَّذِينَ لَا يَكْتَفُونَ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ مَالٍ وَعَقَارٍ، بَلْ يَدَّابُونَ فِي طَلَبِ الْمَزِيدِ ارْتِكَانًا عَلَى مَا فِي هَذِهِ الْأَنْظِمَةِ مِنَ الشَّرَائِعِ وَالْقَوَانِينِ الْجَائِرَةِ الَّتِي لَا تَحُدُّ مِنْ جَشَعِهِمْ.

وَفِي يَوْمٍ مَا، بَيْنَمَا كَانَ يَجُولُ جَوْلَتَهُ الْمُعْتَادَةَ، وَقَفَ أَمَامَ دَارٍ مُغْلَقَةِ الْأَبْوَابِ وَالنَّوَافِذِ، وَأَخَذَ يُوجِّهُ إِلَيْهَا نَجْوَاهُ، قَائِلًا: «فِي هَذِهِ الدَّارِ الْخَاوِيَةِ كَانَ يَسْكُنُ التَّاجِرُ الْغَنِيُّ السَّيِّدُ «عَبْدُ الْغَنِيِّ»، الَّذِي لَمْ يَقْنَعْ بِمَا حَازَهُ مِنْ خَيْرٍ كَثِيرٍ، فَأَخَذَ يُعِدُّ سَفْنًا لِسَفْرَةٍ يَتُوبُ مِنْهَا

^١ هذه نداءات كانت، وما زالت، تلوكتها السنة بعض المتسولين في مصر وغيرها من البلاد العربية، نثبثها هنا على علاقتها كما سمعناها.

بِأَضْعَافٍ مَا كَانَ لَهُ مِنْ مَالٍ، وَلَكِنَّ السُّفْنَ الَّتِي أَنْفَقَ كُلُّ مَا كَانَ عِنْدَهُ فِي سَبِيلِ إِعْدَادِهَا، عَصَفَتْ بِهَا الرِّيَاحُ، فَغَرِقَتْ وَابْتَلَعَهَا الَيِّمُ بِكُلِّ مَا كَانَ فِيهَا.»

وَسَارَ قَلِيلًا ثُمَّ وَقَفَ أَمَامَ دَارٍ أُخْرَى، لَيْسَ بِهَا نَافِخُ ضَرْمَةٍ،^٢ وَأَمْسَكَ عَصَاهُ بِيَسْرَاهُ، وَأَسْنَدَ رَأْسَهُ عَلَى كَفِّ يَمْنَاهُ، وَطَفِقَ يُخَاطِبُهَا قَائِلًا: «وَأَنْتِ أَيُّهَا الْقَصْرُ الْحَرْبُ، أَلَمْ يَقْطُنْكَ رَجُلٌ ثَرِيٌّ كَانَ يُشَارُ إِلَيْهِ بِالْبَنَانِ؟! وَلَكِنَّهُ الطَّمَعُ، عَدُوُّ الْإِنْسَانِ الْأَكْبَرُ، دَفَعَهُ إِلَى طَلَبِ الْمَزِيدِ بِالْمُضَارِبَاتِ الْمَالِيَّةِ، فَأَضَاعَ كُلُّ مَا كَانَ لَهُ مِنْ مَالٍ وَعَقَارٍ، فَمَا أَحْمَقَ النَّاسِ الَّذِينَ لَا يَمْلَأُ عُيُونَهُمْ إِلَّا التُّرَابُ ...»

وَاتَّفَقَ حِينَئِذٍ مَرُورُ «إِلَهَةِ الْبَخْتِ» الْعَمِيَاءِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ وَقَفَتْ تَعْتَرِضُ طَرِيقَهُ، وَقَالَتْ لَهُ: «أَصْبَحَ إِلَى مَا سَأَقُولُهُ لَكَ، وَتَدَبَّرَهُ أَيُّهَا الرَّجُلُ: فَقَدْ مَضَى عَلَيَّ زَمَنٌ طَوِيلٌ وَأَنَا أَحَاوِلُ الْاِتِّصَالَ بِكَ لِمُسَاعَدَتِكَ وَتَحْسِينِ حَالِكَ؛ فَافْتَحْ كَشْكُولَكَ؛ لِأَنِّي سَأَصُبُّ فِيهِ كُلَّ مَا تَطْلُبُهُ نَفْسُكَ مِنْ نَقُودٍ ذَهَبِيَّةٍ، شَرْطُ الْأَا تَدَعِ قِطْعَةً وَاحِدَةً مِنْهَا تَسْقُطُ مِنَ الْجِرَابِ إِلَى الْأَرْضِ؛ لِأَنَّهَا إِذَا سَقَطَتْ فَكُلُّ مَا قَدْ يَكُونُ فِيهِ مِنْ قِطْعِ الذَّهَبِ، سَوْفَ يَنْحَوِلُ إِلَى تُرَابٍ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ، فَاحْذَرَا! وَلَا تَنْسَ أَنْ كَشْكُولَكَ قَدْ أَنْهَكَهُ الْاِسْتِعْمَالُ، فَلَا تَحْمَلْهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَقْدِرُ عَلَى حَمْلِهِ.»

فَمَا إِنْ سَمِعَ مِنْهَا هَذَا الشَّرْطَ «الْبَسِيطَ» حَتَّى أَسْرَعَ وَفَتَحَ أَمَامَهَا كَشْكُولَهُ، فَأَخَذَتْ تَصُبُّ فِيهِ مِنْ ذَهَبِهَا الْوَهَّاجِ، رُوَيْدًا رُوَيْدًا، مَا أَذْهَلُهُ عَنِ التَّحْذِيرِ وَالنُّصْحِ الَّذِي أَسَدَّتْهُ إِلَيْهِ مِنْذُ لَحْظَةٍ، فَقَالَتْ لَهُ: أَلَا تَرَى أَنَّ فِيمَا أَغْدَقْتَهُ عَلَيْكَ الْكِفَايَةَ؟

– كَلَّا! يَا سَيِّدَتِي، أَرْجُوكِ ... أَيُّضًا ...! أَيُّضًا ...! أَيُّضًا ... زَيْدِي ...

– وَلَكِنْ ... أُرِيدُكَ أَنْ تَذْكَرَ أَنَّ كَشْكُولَكَ لَيْسَ جَدِيدًا، وَيُخْشَى عَلَيْهِ أَنْ يَنْشَقَّ، إِذَا حَمَلْتَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ.

– لَا ...! لَا خَوْفَ عَلَيْهِ ...! لَا تَخَافِي ...! إِنَّهُ يَسْعُ أَكْثَرَ مِمَّا فِيهِ الْآنَ ... أَرْجُوكِ أَنْ ...!

– وَلَكِنِّي أَرْجُوكِ بَدُورِي أَلَّا يُذْهَلَكَ رَنْبِنُ ذَهَبِي عَنْ حَقِيقَةِ كَشْكُولِكَ، وَعَنِ الشَّرْطِ

الَّذِي ذَكَرْتَهُ لَكَ عِنْدَمَا عَرَضْتَ عَلَيْكَ هَبْتِي ...

– فَقَطْ ... أَرْجُو أَنْ تُكْمِلِي جَمِيلِكَ ... بِحَبَّةِ أُخْرَى مِنْ ...

^٢ أي: أحد من البشر.

الطَّمَعُ قَلَمًا جَمَعَ

وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ انْشَقَّ الْكَشْكُولُ، فَسَقَطَ مَا كَانَ فِيهِ عَلَى الْأَرْضِ، وَصَارَ تُرَابًا،
وَاحْتَفَتْ إِلَهَةُ الْحِظِّ تَارِكَةً الشَّحَادَ أَفْقَرِ مِمَّا كَانَ؛ وَهُوَ يُقَلِّبُ بَيْنَ يَدَيْهِ كَشْكُولَهُ الْمَشْقُوقِ،
وَيَقْرَعُ سِنَّهُ نَدَمًا وَحَسْرَةً ...

الْجَرُؤُ يَتَحَدَّى فَيْلًا

كَانَ الْفَيْلُ يَقُودُ فَيْلًا هَائِلًا فِي أَكْبَرِ طُرُقِ الْمَدِينَةِ، وَرَأَهُ جَرُؤٌ صَغِيرٌ، فَطَفِقَ يَنْبِحُ حَوْلَ الْفَيْلِ وَيَنْبُ نَحْوَهُ، كَأَنَّهُ يَهَاجِمُهُ وَيَسْتَتِيرُهُ لِمُنَارَلَتِهِ وَمُصَارَعَتِهِ.

فَنَظَرَ إِلَيْهِ الْفَيْلُ وَأَنْتَهَرَهُ فِي سُخْرِيَةٍ، وَهُوَ يَقُولُ لَهُ: أَحَقًّا تَزْعَبُ، يَا صَائِلُ، فِي مُصَارَعَةِ هَذَا الْفَيْلِ؟ فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَثِقَ أَنَّ صَوْتَكَ سَيُبْحُ قَبْلَ أَنْ يَرْمُقَكَ بِنَظَرِهِ، أَوْ يُعِيرَكَ أَقْلَ اهْتِمَامٍ، وَنَصِيحَتِي لَكَ هِيَ أَنْ تَرْحَمَ نَفْسَكَ، وَتُرِيحَ حَنْجَرَتَكَ، وَتَنْدَهَبَ فِي حَالِ سَبِيلِكَ.

فَقَالَ الْجَرُؤُ الْخَبِيثُ: هَوْنٌ عَلَيْكَ يَا صَاحٍ؛ لِأَنِّي مُتَيَقِّنٌ مِنْ صِدْقِ مَا تَقُولُ، وَلَوْلَا هَذَا الْيَقِينُ لَمَا كُنْتُ اجْتَرَأْتُ عَلَى مُهَاجِمَةِ فَيْلِكَ الْجَبَّارِ تِلْكَ الْمُهَاجِمَةَ الَّتِي سَتَجْعَلُ كُلَّ مَنْ يَعْلَمُ بِهَا يَعْجَبُ لِشَجَاعَتِي وَيَقُولُ: «انْظُرْ إِلَى هَذَا الْجَرُؤِ الْجَرِيءِ! حَقًّا إِنَّهُ بَطْلٌ صَنِيدٌ، وَدَاهِيَةٌ شُجَاعٌ، وَإِلَّا لَمَا أَقْدَمَ عَلَيَّ تَحَدِّي هَذَا الْفَيْلِ.»

النملة^١

عَاشَتْ فِي سَالِفِ الْأَرْمَانِ نَمْلَةٌ، ذَكَرَ خَبَرَهَا مُورِّخٌ نَمْلِيٌّ عَظِيمٌ، لَا يَنْطَرِقُ أَقْلُ شَيْءٍ إِلَى صِدْقِ رِوَايَتِهِ؛ قَالَ: إِنَّهَا كَانَتْ مَوْهُوبَةً بِقُوَّةٍ مُدْهَشَةٍ، لَمْ يَسْبِقْ أَنْ كَانَ لِغَيْرِهَا مِنْ بَنِي جِنْسِهَا مِثْلُهَا؛ فَقَدْ كَانَتْ تَقْوَى عَلَى رَفْعِ حَبَّتَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ مِنَ الشَّعِيرِ عَنِ الْأَرْضِ، وَكَذَلِكَ كَانَتْ لَهَا شُهْرَةٌ ذَائِعَةٌ فِي الشَّجَاعَةِ وَالْإِقْدَامِ، حَتَّى إِنَّهَا إِذَا مَا التَّقَتْ بِدُودَةٍ هَجَمَتْ عَلَيْهَا وَصَرَعَتْهَا وَمَزَقَتْهَا تَمَزِيقًا بِلَا أَدْنَى خَوْفٍ أَوْ وَجَلٍ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهَا كَانَتْ لَا تَخْشَى بِأَسِ الْعَنْكَبُوتِ. وَلَهَجَتْ بِأَخْبَارِ قُوَّتِهَا وَبَطُولِهَا كُلِّ قَرْيَةِ النَّمْلِ، فَكَانَتْ تَزُوهُ بِمَا يُغْدَقُ عَلَيْهَا مِنْ عِبَارَاتِ الْمَدْحِ وَالثَّنَاءِ، حَتَّى دَاخَلَهَا الْغُرُورُ، فَصَارَتْ تَحْتَالُ عَجْبًا وَدَلَالًا، وَكَانَتْ تَقُولُ لِلْأَرْضِ: «أَشْنَدِي، فَمَا عَلَيْكَ قَدِّي»، إِلَى أَنْ آلَ بِهَا الْأَمْرُ إِلَى الْعَزْمِ عَلَى السَّفَرِ إِلَى الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ؛ لِتَكْسِبَ فِيهَا شُهْرَةً جَدِيدَةً، وَهَكَذَا هَرَوَلَتْ إِلَى قِمَّةِ حُزْمَةٍ مِنَ التَّنِّينِ، كَانَتْ مَوْضُوعَةً بِجَانِبِ سَائِقِ الْمَرْكَبَةِ الذَّاهِبَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ وَجَلَسَتْ فَوْقَهَا، وَهَكَذَا دَخَلَتِ الْمَدِينَةَ دُخُولَ الْفَاتِحِ الْعَظِيمِ.

وَلَكِنْ مَا أَقْسَى الصَّدْمَةَ الَّتِي أَصَابَتْ كِبْرِيَاءَهَا، عِنْدَمَا رَأَتْ أَنَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ لَمْ يُهْرَعُوا إِلَى الطَّرِيقِ وَالْمِيَادِينِ وَالسَّاحَاتِ الْعُمُومِيَّةِ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا مَرَكَبَتُهَا الْفَحْمَةُ؛ لِكَيْ يَحْطُوا بِرُؤْيَيْهَا، وَتَكْتَحِلَ عِيُونُهُمْ بِمُشَاهَدَةِ أَلْعَابِهَا الْبُهْلَوَانِيَّةِ وَشَقَلْبَاتِهَا الْإِسْتِعْرَاضِيَّةِ، بَلْ كَانُوا

^١ واحدة النمل للذكر والأنثى.

يَرْوَحُونَ وَيَجِيئُونَ وَيَنْكَبُونَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ دُونَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَيْهَا، أَوْ يُعِيرُوهَا أَقْلَ النَّفَاتِ، فَكَمْ وَكَمْ حَاوَلَتْ أَنْ تَسْتَرِعِي أَنْظَارَهُمْ بِالْقَفْرِ وَالْوَثْبِ وَرَفَعِ الْمُتَقَلَّاتِ الْكَبِيرَةَ الْحَجْمِ دُونَ طَائِلٍ!

وَأَخِيرًا عِنْدَمَا أَعْيَتْهَا الْحَيْلُ وَأَضْنَاهَا التَّعَبُ، أَدَارَتْ نَظْرَهَا إِلَى الْكَلْبِ الرَّاقِدِ بِجَانِبِ مَرْكَبَةِ سَيِّدِهِ، وَخَاطَبَتْهُ قَائِلَةً: يَا عَزِيزِي «فِيدُو»، أَلَسْتَ تَرَى مِثْلِي أَنْ كُلَّ سُكَّانِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْكَبِيرَةِ مُجَرَّدُونَ مِنَ الْإِحْسَاسِ؛ فَلَهُمْ عُيُونٌ وَلَكِنَّهَا لَا تُبْصِرُ، وَأَذَانٌ لَا تَسْمَعُ، فَقَدْ قَضَيْتُ هُنَا أَكْثَرَ مِنْ سَاعَةٍ، أَنْهَكْتُ فِيهَا بَدَنِي؛ لِأُرِيَهُمْ مَا أَنَا عَلَيْهِ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْمَهَارَةِ فِي الْأَلْعَابِ الَّتِي تَسْحَرُ الْأَلْبَابَ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيَّ وَاحِدٌ مِنْهُمْ، مَعَ أَنْ شَهْرَتِي قَدْ عَمَّتْ «بِلَدَّتْنَا»، حَتَّى أَصْبَحْتُ أُحْدِثُ أَهْلِهَا، قَالَتْ ذَلِكَ، وَإِذْ لَمْ تَسْمَعْ جَوَابًا مِنْ «فِيدُو»، أَدَارَتْ لَهُ وَالْمَدِينَةَ ظَهْرَهَا، وَاتَّجَهَتْ نَحْوَ قَرِيْبَتِهَا ...

الْحَمَلُ الْوَدِيعُ

عَثَرَ الْحَمَلُ السَّادِجُ عَلَى جِلْدِ ذَيْبٍ، فَخَطَرَ لَهُ أَنْ يَلْعَبَ دُورًا مُضْحِكًا عَلَى رِفَاقِهِ، فَارْتَدَى
الْجِلْدَ، وَأَنْسَلَ بَيْنَ أَصْدِقَائِهِ وَإِخْوَانِهِ فِي الْقَطِيعِ؛ كَيْ يُدَاعِبَهُمْ بِزِيَةِ الْجَدِيدِ.
وَقَبْلَ أَنْ يُدْرِكَ مَا سَبَّبَهُ مِنَ الدُّعْرِ وَالْهَلَعِ فِي الْحَضِيرَةِ، كَانَتْ كِلَابُ الْحَرَسِ فَوْقَهُ
تَنْشَبُ أَنْيَابَهَا فِي جِلْدِهِ وَلَحْمِهِ كَيْ تُمَزَّقَهُ إِرْبًا.
وَلِحُسْنِ حَطِّهِ أَنْ أَدْرَكَهُ الرَّاعِي، وَرَأَهُ تَحْتَ جِلْدِ الذَّيْبِ، فَزَجَرَ الْكِلَابَ عَنْهُ، وَأَنْقَذَهُ
مِنْ مَصِيرٍ مُحْزِنٍ كَانَ مُحَقَّقًا.

فَعَلَى الْحُمْلَانِ الْوَادِعَةِ أَلَّا تَظْهَرَ بِمَظْهَرِ الذَّنَابِ الْكَاسِرَةِ.

الغدير الصغير^١

جَلَسَ الرَّاعِي الْمَسْكِينُ عِنْدَ الْغَدِيرِ الصَّغِيرِ يَنْدُبُ حَظَّهُ الْعَاثِرَ؛ لِأَنَّ خَرُوفًا مِنْ خِرَافِهِ غَرِقَ فِي النَّهْرِ الْمَجَاوِرِ.

وَحَزَنَ الْغَدِيرُ لِحُزْنِ الرَّاعِي، وَأَخَذَ يُوَاسِيهِ وَيُعَزِّيهِ، مُوجِّهًا إِلَى النَّهْرِ عِتَابًا مَرًّا عَلَى أَثَرَتِهِ^٢ وَقَسَوْتِهِ، فَقَالَ: تَبًّا لَكَ أَيُّهَا الْغَدَارُ الشَّرُّ، مَا أَقْسَى قَلْبَكَ! أَلَيْسَ لِحَشَعِكَ حَدٌّ، أَوْ لِحَطْمِكَ نَهَائِيَّةٌ؟ فَلَوْ اسْتَطَاعَ النَّاسُ أَنْ يَسْتَشْفُوا مَا تَحْتَ مِيَاهِكَ الْعَمِيقَةِ الْعَكِرَةِ، كَمَا يَقْدِرُونَ عَلَى رُؤْيَةِ مَا فِي مِيَاهِي الْقَلِيلَةِ الصَّافِيَةِ، لَأَقْشَعَرَّتْ أَبْدَانُهُمْ أَشْمِئزًا مِنْ هَوْلِ مَا يَرُونَ فِي جَوْفِكَ الْقَدْرِ مِنْ فَضَلَاتِ الضَّحَايَا الَّتِي تَنْتَلِعُهَا مِنْ وَقْتٍ إِلَى آخَرَ! وَكُنْتَ تَهْرُبُ خَجَلًا؛ لِتَحْتَفِيَ عَنِ الْأَنْظَارِ بِالْغُورِ فِي جَوْفِ الْأَرْضِ، أَوْ الْإِنْحِدَارِ إِلَى هُوَّةِ دَامِسَةِ الظَّلَامِ.

أَمَّا أَنَا، فَلَوْ أَسْعَدَنِي الْحَظُّ بِمَا حَبَاكَ^٣ مِنْ قُوَّةِ بَاهِرَةٍ،^٤ وَمِيَاهِ زَاخِرَةٍ؛ لَكُنْتُ أَصْرِفُهَا فِي سُبُلٍ غَيْرِ سُبُلِكَ، فَمَا كُنْتُ أُؤْذِي حَتَّى الدَّجَاجَةَ الصَّغِيرَةَ، وَكُنْتُ أَنْسَابُ بِكُلِّ لُطْفٍ وَدِعَةٍ بَيْنَ الْمَسَاكِينِ وَالْحَدَائِقِ حَامِلًا الْهِنَاءِ وَالرَّخَاءِ وَالْبُهْجَةَ لَهَا وَلِكُلِّ الْوُودِيَانِ وَالْحُقُولِ وَالْمُرُوجِ الَّتِي يُسْعِدُهَا حَظُّهَا بِمُرُورِي بِهَا فِي طَرِيقِي إِلَى الْبَحْرِ الْعَظِيمِ، دُونَ أَنْ أَسْلُبَهَا

^١ الغدير: قطعة من الماء يغادرها السيل.

^٢ الأثرة: حُبُّ النفس المفرط.

^٣ أعطى بلا جزاء.

^٤ غالبية.

وَرَقَّةٌ مِنْ أَصْغَرِ حَشَائِشِهَا، أَوْ زَهْرَةٌ مِنْ أَحْقَرِ أَعْشَابِهَا — قَالَ ذَلِكَ مُخْلِصًا، وَكَانَ مُؤْمِنًا بِصِدْقِ مَا قَالَ.

وَبَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ الْوَقْتِ، اكْفَهَرَ الْجَوُّ، وَأَظْلَمَتِ السَّمَاءُ بِالْمُعْصِرَاتِ ° الْمُطَبِّقَاتِ، ٦ وَدَوَى الرَّعْدُ الْقَاصِيفُ، وَلَمَعَ الْبَرْقُ الْخَاطِطُ، ثُمَّ هَطَلَتِ الْأَمْطَارُ الْغَزِيرَةُ، وَأُتْرَعَتِ مَسَائِلُ الْمِيَاهِ، فَارْتَفَعَ مَاءُ الْغَدِيرِ، وَصَارَ سَيْلًا عَرْمَرَمًا، ٧ أَشَدَّ طُغْيَانًا مِنَ النَّهْرِ، فَانْطَلَقَ يُرْغِي وَيُزِيدُ وَيُهِدِرُ، جَارِفًا كُلَّ مَا اعْتَرَضَ سَبِيلَهُ مِنَ الْأَشْجَارِ الْبَاسِقَةِ، مُلْتَهُمَا كُلَّ مَا أَدْرَكَهُ مِنْ حَيَوَانَ وَإِنْسَانٍ، حَتَّى إِنَّ صَدِيقَهُ الرَّاعِي الْمُسْكِينَ لَمْ يَنْجُ مِنْ شَرِّهِ، هُوَ وَكُوْحُهُ، وَمَا بَقِيَ لَهُ مِنْ قَطِيعِهِ ...

° الغيوم تأتي بالأمطار.

٦ تَسُدُّ الْأَفَاقَ كُلَّهَا.

٧ شَدِيدًا.

التَّعْلَبُ وَالْمَرْمُوطُ^١

صَاحَ الْمَرْمُوطُ بِالتَّعْلَبِ قَائِلًا: وَلِمَ هَذِهِ السَّمْسَمَةُ^٢ يَا أَبَا الْهَيَّاطِلِ؟^٣ إِنَّكَ تَعْدُو كَالْهَارِبِ مِنْ مَوْتٍ مُحَقَّقٍ.

فَأَجَابَهُ التَّعْلَبُ — وَاللَّهَاتُ يَكَادُ يَقَطَعُ أَنْفَاسَهُ — قَائِلًا: مَا أَفْطَحَ التُّهَمَ الَّتِي يُنْصِقُهَا النَّاسُ جُزَافًا بِاسْمِي، وَأَنَا بَرِيءٌ مِنْهَا يَا صَدِيقِي! فَقَدْ تَوَلَّيْتُ حِرَاسَةَ بَيْتِ الدَّجَاجِ الْقَرِيبِ مِنْ هُنَا زَمَانًا طَوِيلًا، لَمْ تَعْمُضْ فِيهِ عَيْنِي طُولَ اللَّيَالِي، وَلَمْ أَهْنَأْ بِأَكْلِ لُقْمَةٍ كُلِّ الْيَامِ، حَتَّى اعْتَلَّتْ صِحَّتِي، وَبَعْدَ كُلِّ هَذَا الْجَهْدِ الْجَاهِدِ يُسْوِءُونَ سَمْعَتِي؛ إِذْ يَقُولُونَ عَنِّي: إِنَّي لِيَصُّ سَافِلٌ حَسِيسٌ، فَيَا لَهَا مِنْ تَهْمَةٍ يَفْشَعِرُ لِشِنَاعَتِهَا بَدَنِي! ... أَنَا حَقًّا حَرَامِيٌّ؟ أَيْرْضِيكَ أَنْ تُلْصِقَ بِصَاحِبِكَ وَصْمَةً عَارٍ هُوَ مُنَزَّهُ عَنْهُ؟ أَرْجُوكَ، وَأَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ أَنْ تَحْلِفَ لَهُمْ بِكُلِّ عَزِيزٍ لَدَيْكَ عَلَى بَرَاءَتِي؛ لِأَنَّكَ — دُونَ شَكِّ — لَمْ تَرْنِي أَسْرَقٌ! أَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ؟

وَقَالَ الْمَرْمُوطُ: حَقًّا إِنِّي لَمْ أَرَكَ تَسْرِقُ الدَّجَاجَ، يَا صَاحِ، وَلَكِنَّ الْحَقَّ أَوْلَى أَنْ يُقَالَ: وَهُوَ أَنِّي كَثِيرًا مَا رَأَيْتُ زَعْبًا؛ لَاصِقًا بِخَطْمِكَ.^٥

^١ حيوان قارصٌ يعيش في صرود الجبال، وهو أكبر من الجرذ إلا أنه أقصر ذنبًا، واللفظة معربة.

^٢ عدو التعالب.

^٣ الهيطل: من أسماء التعلب.

^٤ صغار الرِّيش.

^٥ خطم الدابة: مقدم أنفها وفمها.

الذُّبُّ يَنْشُدُ السَّلَامَ

قَالَ الذُّبُّ لِلْعُقَيْقِ^١ وَدَاعَا يَا صَدِيقِي الْعَزِيزُ، فَقَدْ نَوَيْتُ هَجْرَ هَذِهِ الْعَابَةِ الْمُنْحُوسَةِ، بَعْدَ أَنْ يَبْسُتُ مِنْ نَيْلِ السَّلَامِ وَالرَّاحَةِ وَإِدْرَاكِ الْهَنَاءِ وَالطَّمَأِينَةِ فِيهَا.
فَكُلُّ الْمَخْلُوقَاتِ هُنَا تَكْرَهُنِي، وَتَنْظُرُ إِلَيَّ كَمَا لَوْ كُنْتُ عَدُوَّهَا اللَّدُودَ.
فَقَالَ الْعُقَيْقُ لِلذُّبِّ — مُتَظَاهِرًا بِالْحُزْنِ لَوْعِ هَذَا الْخَبْرِ فِي نَفْسِهِ: وَإِلَى أَيْنَ فَكَّرْتَ فِي الرَّحِيلِ يَا هَذَا؟

— إِلَى أَيْنَ ...؟ إِلَى أَيِّ مَكَانٍ يُبْعِدُنِي عَنْ هَذِهِ الْعَابَةِ الْبَغِیْضَةِ، وَسَأَحَاوِلُ أَنْ تَكُونَ بِلَادًا نَائِيَةً، سُكَّانُهَا أَوْدَعُ مِنَ الْحُمْلَانِ، وَكِلَابُهَا أَجْبَنُ مِنَ الْخِرْفَانِ، وَكُلُّ أَهْلِهَا يَعْشُونَ مُجْتَمِعِينَ عَلَى الْأَلْفَةِ وَالْمَوَدَّةِ، حَيْثُ يَعُمُّ السَّلَامُ، فَأَنْعَمُ بِلَذَّةِ الْحُرِّيَّةِ، وَأَسْتَنْشِقُ هَوَاءَهَا الْمُنْعِشَ، فَلَا أَضْطَرُّ إِلَى الْإِحْتِبَاءِ نَهَارًا، وَحِرْمَانِ نِعْمَةِ النَّوْمِ لَيْلًا ... وَ...
فَقَالَ الْعُقَيْقُ: حَسَنًا تَفَعَّلَ يَا صَاحِبَ! وَلَكِنْ قُلْ لِي بِاللهِ عَلَيْكَ؛ أَلَا تَنْوِي الْإِقْلَاعَ عَنْ وَحْشِيَّتِكَ الْكَرِيهَةِ وَخَلْعَ أُنْيَابِكَ الْحَادَّةِ قَبْلَ دُخُولِ هَذِهِ الْبِلَادِ السَّعِيدَةِ؟
وَقَالَ الذُّبُّ: كَلَّا، وَأَلْفَ كَلَّا! إِذْ كَيْفَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَحْيَا بِدُونِهَا؟
فَقَالَ الْعُقَيْقُ: إِذَنْ ثِقْ أَنْكَ لَنْ تَجِدَ سَلَامًا أَيْنَمَا نَهَبْتَ.

^١ أو قُفْقُق أو كُذْدُش، تضاربت الآراء في صحة الاسم العربي للطائر المعروف عند الإنكليز باسم Magpie، وقد اخترنا هذا الاسم الذي نَظَنُّهُ الأَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ.

البرميل الفارغ والبرميل المملآن

سَارَ بِرَمِيلَيْنِ فِي طَرِيقَهُمَا مِنَ الْمَخْزَنِ الْقَدِيمِ إِلَى الْمَخْزَنِ الْجَدِيدِ، يُدْخِرُ كُلًّا مِنْهُمَا فَتَى مَفْتُولُ السَّاعِدَيْنِ.

وَكَانَ أَحَدُهُمَا مَلَأَنَ بِالشَّرَابِ الْمُعْتَقِ، وَالْآخَرُ فَارِغًا جَافًا لَا شَيْءَ فِيهِ.
فَكَانَ الْأَوَّلُ يَسِيرُ سَيْرًا وَثِيْدًا بِلَا ضَوْضَاءَ، أَمَّا الثَّانِي، فَلِأَنَّهُ كَانَ فَارِغًا خَفِيْفًا كَانَ يَقْفِرُ وَيَتَرَجَّرُ، وَيُحَدِّثُ قَعْقَعَةً وَدَوِيًّا كَدَوِيِّ الرَّعْدِ، حَتَّى أَجْفَلَ الَّذِينَ كَانُوا فِي طَرِيقِهِ، وَجَعَلَهُمْ يُخْلُونَهُ لَهُ فَرَعًا وَحَوْفًا، أَوْ اجْتِنَابًا لِسَمَاعِ صَوْتِهِ الْمُزْعِجِ.

وَالآنَ: أَلَسْتَ تَرَى مَعِيَ يَا قَارِي الْعَزِيْزُ أَنَّ عَظْمَةَ الْبَرْمِيلِ الْمَلَأَنِ قَدْ تَجَلَّتْ بِتَوُدَّتِهِ وَرَزَانَتِهِ وَصَمْتِهِ، بَيْنَمَا قَعْقَعَةُ زَمِيلِهِ الْفَارِغِ قَدْ فَضَحَتْ أَمْرَهُ؟! وَأَنَّ ذَلِكَ يُعَزِّزُ الْمَثَلَ الْقَائِلَ: «إِنَّ الْبَرَامِيلَ الْفَارِغَةَ أَكْثَرُ جَلْبَةً مِنَ الْبَرَامِيلِ الْمَلَأَنَةِ.»

البرميل ينضح بما كان فيه

اسْتَعَارَ جَارٌ مِنْ جَارِهِ بَرْمِيلًا لِحَاجَتِهِ إِلَيْهِ لَوْقَتٍ قَاصِرٍ، فَأَعَارَهُ بِرْمِيلِهِ الَّذِي كَانَ يَسْتَعْمِلُهُ فِي نَقْلِ مَاءٍ شُرْبِهِ أَوْ خَزْنِهِ.

وَرَدَ الْجَارُ الْبَرْمِيلَ بَعْدَ أَنْ قَضَى حَاجَتَهُ مِنْهُ، وَمَلَأَهُ صَاحِبُهُ مَاءً زَلَالًا؛ لِيَشْرَبَ مِنْهُ بَعْدَ أَنْ غَسَلَهُ بِكُلِّ عِنَايَةٍ؛ كَيْ يَنْظِفَهُ مِمَّا عَلِقَ بِهِ مِنْ ثِقَلِ الْخَمْرِ الَّذِي كَانَ الْجَارُ قَدْ خَمَرَهُ فِيهِ، وَعِنْدَمَا اسْتَقَى مِنَ الْبَرْمِيلِ وَجَدَ طَعْمَ الْخَمْرِ وَرَائِحَتَهُ قَدْ أَفْسَدَا الْمَاءَ، فَمَجَّ بِهِ مِنْ فَمِهِ، وَدَلَقَ — صَبَّ — مَا كَانَ مِنْهُ فِي الْبَرْمِيلِ، وَأَعَادَ غَسَلَهُ بِالْمَاءِ السَّاخِنِ وَالصَّابُونِ الْكَثِيرِ، وَبِكُلِّ مَا خَطَرَ لَهُ وَالصَّحَابِهِ مِنْ وَسَائِلِ التَّطْهِيرِ وَالتَّنْظِيفِ، ثُمَّ مَلَأَهُ، وَجَرَّبَ أَنْ يَشْرَبَ مِنْ مَائِهِ، وَلَكِنَّهُ وَجَدَ أَنَّ الْبَرْمِيلَ لَمْ يَزَلْ يَنْضَحُ بِطَعْمِ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الْخَمْرِ، وَعَبَثًا كَرَّرَ عَمَلِيَّاتِ التَّنْظِيفِ، وَلَمَّا أَعْيَنَهُ الْحَيْلُ، اضْطُرَّ إِلَى بَيْعِهِ بِأَبْحَسِ الْأَثْمَانِ؛ لِيَنْخَلِّصَ مِنْهُ.

وَفِي هَذِهِ الْحِكَايَةِ عِظَةٌ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْمُرَبِّينَ، يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَلَّا يَحْطُوا مِنْ قَدْرِهَا، فَالْعَقْلُ كَالْبَرْمِيلِ، لَا يُمَكِّنُ التَّخَلُّصَ مِنْ رَائِحَةِ مَا تَضَعُهُ فِيهِ، خَلَا كَانَ أَوْ خَمَرًا؛ أَيُّ: خَيْرًا كَانَ أَمْ شَرًّا.

فَلَا تَسْمَحُوا لِفَلَذَةِ أَكْبَادِكُمْ أَنْ يَنْعَمِسُوا فِي تَعَالِيمِ ضَارَّةٍ، لَا بَدَّ وَأَنْ تَعْلَقَ بِعُقُولِهِمْ وَنُفُوسِهِمْ إِلَى آخِرِ رَمَقٍ مِنْ حَيَاتِهِمْ.

السُّلْطَانُ الْجَدِيدُ

... وَخَاطَبَ الْوُقُوقُ^١ الْعَنْدَلِيبَ^٢ قَائِلًا: لَقَدْ طَالَ عَهْدُ مُلْكِكَ فِي هَذِهِ الْغَابَةِ، وَأَطْنُكَ قَدْ تَعَبَتْ مِنْ الْعَنْدَلِيبِ^٣ كُلِّ مَسَاءٍ؛ فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَلَا نَسْبَ أَنْ تَتَنَحَّى عَنْ سُلْطَانِكَ لِسِوَاكَ. فَسَأَلَ الْعَنْدَلِيبُ الْوُقُوقَ عَمَّنْ يَقْتَرِحُ لِيَتَنَازَلَ لَهُ عَنْ سُلْطَانِهِ. فَأَجَابَ الْوُقُوقُ قَائِلًا: إِنِّي أَقْبَلُ — عَنْ طِيبَةِ خَاطِرٍ — أَنْ أَتَبَوَّأَ هَذَا الْعَرْشَ، وَأُضْحِيَ بِرَاحَتِي فِي سَبِيلِ الْقِيَامِ بِمَهَامِّ الْمُلْكِ وَالتَّغْرِيدِ كُلِّ مَسَاءٍ إِكْرَامًا لِخَاطِرِكَ. فَقَالَ الْعَنْدَلِيبُ: حَسَنًا نَطَقْتَ! فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ سَأَهْجُرُ الْغَابَةَ، وَأَتْرُكُ أَحْيَاءَهَا تَسْتَمِيعُ بِشِدْوِكَ وَصَدَاحِكَ.

وَعِنْدَمَا أَقْبَلَ الْمَسَاءَ، جَلَسَ الْوُقُوقُ عَلَى فَرْعِ شَجَرَةٍ، وَاسْتَدْعَى طُيُورَ الْغَابَةِ وَحَيَوَانَاتِهَا، وَخَاطَبَهَا قَائِلًا: لَقَدْ رَحَلَ الْعَنْدَلِيبُ بَعْدَ أَنْ أَوْصَانِي أَنْ أَتَبَوَّأَ عَرْشَهُ، وَأَشْنَفَ آذَانَكُمْ بِصَوْتِي بَدَلًا مِنْهُ، ثُمَّ طَفِقَ يُوقِقُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ كَيْ يُطْرِبَهُمْ، وَسَكَتَ هُنَيْهَةً لِيُجِيلَ

^١ طائر يُعرفُ في الشام باسم قَيْقَبٍ وقَيْقُوبَةٍ وِخَمَامٍ قَوْلًا، وفي مصر بأسماء لا حصر لها، منها الكوكو والهوهو، وهذا حكاية صوته.

^٢ إن الكلام عن هذا الطائر في كتب اللغة مضطرب، ويصعب جدًّا التخصيص بين العندليب والهزار والبلبل وغيرها من الطيور المُعْرَدَةِ؛ لأنها كلها إمَّا «طائر حسن الصوت»، وإمَّا «طائر يصوت ألوأنا»، وقد استعملتُ اسم الجنس «للواحدة» من هذين الطائرين.

^٣ العَنْدَلِيبُ: تغريد العندليب.

بَصْرَهُ فِي مَا حَوْلَهُ، فَوَجَدَ أَنَّ رَعِيَّتَهُ قَدْ فَرَعَتْ مِنْ رَعِيْقِهِ، وَانْطَلَقَتْ الْوَاحِدَةَ فِي إِثْرِ الْأُخْرَى،
وَهِيَ تَقُولُ: يَا لَصَوْتِ سُلْطَانِنَا الْجَدِيدِ مِنْ وَقَعِ مُصْدِعِ!
وَعَضِبَ الْوَقُوقُ، وَذَهَبَ يَبْحَثُ عَنْ مَكَانِ الْعَنْدَلِيبِ حَتَّى وَجَدَهُ، فَقَالَ لَهُ: نَزُولًا عَلَى
إِرَادَتِكَ قَبِلْتُ أَنْ أَكُونَ سُلْطَانَ الْغَابَةِ، وَلَكِنَّ الطُّيُورَ — حَتَّى الْحَيَوَانَاتِ — فَرَعَتْ مِنْ
صَوْتِي، وَهَرَبَتْ حَتَّى لَا تَسْمَعَنِي.
فَأَجَابَهُ الْعَنْدَلِيبُ قَائِلًا: يَا صَدِيقِي الْعَزِيزُ، قَدْ أَمَكَّنَنِي أَنْ أَتَنَازَلَ لَكَ عَنْ سُلْطَانِي،
وَلَكِنِّي لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَمْنَحَكَ صَوْتِي ...

المهر ينتقد الفلاح المبذر

رَأَى الْمُهْرُ^١ فَلَاحًا مُنْهَمَكًا فِي زَرْعِ حَقْلِ بِيَدُورِ الشُّوفَانِ، فَتَارَ تَائِرَهُ، وَقَالَ فِي نَفْسِهِ مُتَهَكِّمًا: يَا لَهَا مِنْ غِبَاوَةٍ لَا تُحْتَمَلُ! أَلَمْ نَسْمَعْ مِنْ آبَائِنَا وَأَجْدَادِنَا أَنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ سَيِّدُ كُلِّ الْحَيَوَانَاتِ بِلَا مُنَازَعٍ؛ لِأَنَّ الْخَالِقَ قَدْ حَبَاهُ عَقْلًا أَسْمَى مِنْ عُقُولِ بَقِيَّةِ الْخَلَائِقِ، فَمَا بَالِي أَرَى هَذَا الْإِنْسَانَ أَسْحَفَ عَقْلًا، وَأَقْلَّ تَدْبِيرًا مِنْ أَحَطِّ الْبِهَائِمِ؟! تَأَمَّلْ كَيْفَ سَوَّغَ لَهُ هَذَا الْعَقْلُ السَّامِي أَنْ يُبْعَثَرَ فِي الْأَرْضِ كُلِّ مَا مَعَهُ مِنَ الشُّوفَانِ اللَّذِيذِ الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يُشْبِعَ حِصَانَيْنِ وَأَكْثَرَ، أَوْ عَدَدًا كَبِيرًا مِنَ الدَّجَاجِ، فَلَوْ كَانَ لَهُ عَقْلٌ — كَمَا يَقُولُونَ — وَأَعْطَانِي هَذَا الشُّوفَانَ، لَكُنْتُ أَرِيهِ كَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يُنْتَفَعَ بِهِ؟ أَهَذَا مَا يُسَمُّوهُ عَقْلًا؟ حَقًّا إِنَّهُ جُنُونٌ، جُنُونٌ مُطْبِقٌ، بَلْ أَرَاهُ تَبْدِيرًا يَسْتَحِقُّ مُرْتَكِبُهُ أَقْسَى عِقَابِ.

وَكَّرَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى أَقْبَلَ الْخَرِيفُ وَالْحَصَادُ^٢، فَأَعْطَتِ الْحَصِيدَةُ^٣ مِنْ حَبِّ الشُّوفَانِ الْقَلِيلِ الَّذِي «بَعَثَرَهُ» الْفَلَّاحُ فِي الْحَقْلِ، بِشُوفَانٍ كَثِيرٍ، كَفَى الْمُهْرَ وَأَهْلَهُ وَإِخْوَانَهُ وَجَمِيعَ أَهْلِ الْمَرْزَعَةِ وَطُيُورِهَا كُلَّ فَضْلِ الشِّتَاءِ الطَّوِيلِ.

^١ ولد الفرس.

^٢ أوان الحصد.

^٣ ما حُصِدَ مِنَ الزَّرْعِ.

تَعْلِيمُ الْأَمْرَاءِ

كَانَ لِلْأَسَدِ، مَلِكِ الْغَابَةِ، ابْنٌ وَحِيدٌ، فَلَمَّا طَوَى السَّنَةَ الْأُولَى مِنْ عُمْرِهِ السَّعِيدِ، رَأَى وَالِدَهُ أَنَّ الْوَقْتَ قَدْ حَانَ لِلْبَدْءِ فِي تَثْقِيفِهِ تَثْقِيفًا يَلِيْقُ بِوَلِيِّ عَهْدِهِ، وَفَكَرَّ الْمُسْتَشَارُونَ أَوَّلًا فِي أَنْ يَعْهَدُوا بِهَذِهِ الْمَهْمَةِ إِلَى الْخُلْدِ لِمَا لَهُ مِنَ الشُّهُرَةِ الدَّائِعَةِ فِي حُبِّ النُّظَامِ وَالتَّرْتِيبِ، وَالتَّائِيِ وَالتَّرْتِيبِ فِي كُلِّ أَعْمَالِهِ وَحَرَكَاتِهِ، حَتَّى قِيلَ عَنْهُ: إِنَّهُ لَا يَأْكُلُ حَبَّةَ حِنْطَةٍ مَا لَمْ يَنْحَقِّقْ نِظَافَتَهَا، ثُمَّ عَدَلُوا عَنْهُ لِمَا تَذَكَّرُوا أَنََّّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْرِكَ إِلَّا مَا يَقَعُ تَحْتَ أَنْفِهِ، وَأَنْ لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَى إِدْرَاكِ مَا هُوَ بَعِيدٌ عَنْهُ، خُصُوصًا لِأَنَّ مَمْلَكَةَ أُسَامَةَ^١ تَخْتَلِفُ عَنِ بَيْتِ الْخُلْدَانِ^٢ اتِّسَاعًا وَرَحَابَةً، ثُمَّ فَكَّرُوا فِي النِّمْرِ؛ لِرِشَاقَتِهِ، وَقُوَّتِهِ، وَشَجَاعَتِهِ، وَبِرَاعَتِهِ فِي فُنُونِ الْحَرْبِ وَالْقِتَالِ، وَلَكِنَّهُمْ عَدَلُوا عَنْهُ لِرُعُونَتِهِ، وَلِقَلَّةِ الْإِمَامِهِ بِالْأُمُورِ السِّيَاسِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ وَالْإِدَارِيَّةِ. وَعَلِمَ الْعُقَابُ — مَلِكُ الطُّيُورِ — بِالْخَبْرِ، فَتَقَدَّمَ لِيَتَوَلَّى أَمْرَ تَرْبِيَةِ وَلِيِّ الْعَهْدِ، وَابْتِهَاجِ مَلِكِ الْغَابَةِ بِهَذَا التَّوْفِيقِ الْحَمِيدِ؛ إِذْ مَنْ يُمْكِنُ أَنْ يُفْضَلَ مَلِكِ الطُّيُورِ فِي تَعْلِيمِ وَلِيِّ عَهْدِ مَلِكِ الْحَيَوَانَاتِ؟ وَهَكَذَا صَدَرَ الْأَمْرُ بِإِرْسَالِ وَلِيِّ الْعَهْدِ إِلَى مَسْكَنِ الْعُقَابِ لِيَتَهَدَّبَ تَهْدِيبًا يَلِيْقُ بِمَلِكِ الْغَابَةِ.

^١ عِلْمُ جِنْسٍ لِلْأَسَدِ.

^٢ أَوْ مَنَاجِذُ جَمْعِ «خُلْدٍ» مِنْ غَيْرِ لَفْظِهِ، وَالْخُلْدُ مِنَ الْقَوَاضِمِ يَعِيشُ تَحْتَ الْأَرْضِ، وَلَيْسَ لَهُ عَيْنَانِ وَلَا أُذُنَانِ.

وَمَرَّتْ بِضُعْ سَنَوَاتٍ، وَأَكْمَلَ وِلِيُّ الْعَهْدِ تَعْلِيمَهُ، وَعَادَ إِلَى وَالِدِهِ الْمَلِكِ، وَدَعَا الْمَلِكُ شَعْبَهُ الْمُتَعَطِّشَ إِلَى رُؤْيَةِ وِلِيِّ الْعَهْدِ الْمَحْبُوبِ، وَعِنْدَمَا اجْتَمَعَ كُلُّ الشَّعْبِ، ضَمَّ ابْنَهُ إِلَى صَدْرِهِ وَقَالَ لَهُ: يَا وِلِيَّ عَهْدِي الْمَحْبُوبِ! إِنِّي قَدْ دَنَوْتُ مِنَ الْقَبْرِ، وَأَرْغَبُ فِي أَنْ أُسَلِّمَكَ صَوْلَجَانَ مَمْلَكَتِي، فَقُلْ لِي أَمَامَ رَعِيَّتِنَا؛ كَيْفَ تَنْوِي أَنْ تَسُوسَ هَذَا الشَّعْبَ الْحَبِيبَ؟

وَقَالَ وِلِيُّ الْعَهْدِ: يَا أَبْتَ الْعَظِيمِ، إِنِّي تَعَلَّمْتُ مَا لَمْ يَتَعَلَّمْهُ سِوَايَ مِنْ أَفْرَادِ شَعْبِنَا الْمُجْتَمِعِ أَمَامَنَا هُنَا؛ وَلِذَا تَرَانِي مُلِمًّا بِكُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ كُلُّ نَوْعٍ مِنْ طُيُورِ السَّمَاءِ مِنَ الْغِدَاءِ، فَأَنَا أَعْلَمُ مِنْ سِوَايَ بِمَا يَأْكُلُهُ كُلُّ جِنْسٍ مِنْهَا، وَعَدَدَ الْبَيْضَاتِ الَّتِي يَبِيضُهَا، وَإِنْ شَاءَ اللَّهُ وَتَبَوَّأْتُ الْعَرْشَ — بَعْدَ عُمْرِكُمْ الطَّوِيلِ — فَإِنِّي أَنْوِي أَنْ أُعَلِّمَ كُلَّ حَيَوَانَاتِ الْغَابَةِ، كَيْفَ يَجِبُ أَنْ تَبْنِي أَعْشَاشَهَا وَأَوْكَارَهَا ...

كَمَا تَزْرَعُ تَحْصُدُ

مَرَّ الذُّبُّ مُهْرُولًا صَوَّبَ الْقَرْيَةَ، يَطْلُبُ النِّجَاةَ مِنْ مُطَارِدِيهِ، وَلَمَحَ هَرَّةً مُكْنَكَةً عَلَى غُصْنِ شَجَرَةٍ، فَخَاطَبَهَا قَائِلًا: دَلِّينِي — بِرَبِّكَ — عَلَى كُوخٍ لِرَجُلٍ يَكُونُ أَطْيَبَ أَهْلِ قَرْيَتِكُمْ قَلْبًا، وَأَوْفَرَهُمْ كَرَمًا، وَعَجَلِي كَيْ أَلْجَأَ إِلَيْهِ، وَأَحْتَمِي بِهِ قَبْلَ أَنْ تَلْحَقَنِي الْكِلَابُ الْمُطَارِدَةُ، الَّتِي تَسْمَعِينَ نَبَاحَهَا خَلْفِي!

— اذْهَبِ إِذْنِ إِلَى كُوخِ السَّيِّدِ حَبِيبِ بُلْبُعِ، وَلَا تَخَفْ؛ لِأَنَّهُ مَشْهُورٌ بِطَيِّبَةِ قَلْبِهِ.
— بُلْبُعُكَ هَذَا غَاضِبٌ عَلَيَّ؛ لِأَنِّي اخْتَطَفْتُ حَمَلًا صَغِيرًا مِنْ خِرَافِهِ الْكَثِيرَةِ فِي الرَّبِيعِ الْمَاضِي.

— جَرَّبُ إِذْنِ دَارَ السَّيِّدِ إِبْرَاهِيمَ عَبْدِ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَفْضَلِ أَهْلِ الْقَرْيَةِ أَجْمَعِينَ!
— يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الرَّجُلُ كَمَا تَصِفِينَهُ وَأَفْضَلَ، يَا أُخْتَاهُ، وَلَكِنَّ الضَّرُورَةَ أَلْجَأَتْني إِلَى سَرِقَةِ جَدِّي مِنْ غَنَمِهِ مُنْذُ أُسْبُوعٍ، فَلَا أَمَلٌ لِي فِي حِمَايَتِهِ إِذْنِ.
— مَا أَحْرَجَ مَرَكَزَكَ! وَالْآنَ لَمْ يَبْقَ لَكَ مِنْ أَمَلٍ إِلَّا فِي الْاِلْتِجَاءِ إِلَى دَارِ السَّيِّدِ أَبِي خَلِيلٍ، فَهِيَ مَلْجَأٌ كُلُّ بَائِسٍ مُسْتَعِيثٍ.

— وَهَذَا لَا يُمَكِّنُنِي الدُّنُوُّ مِنْهُ، أَوْ مِنْ دَارِهِ؛ لِأَنِّي أُعْرِيتُ عَلَى افْتِرَاسِ عَجَلٍ مِنْ عُجُولِهِ الْمُسَمَّنَةِ مُنْذُ عَهْدٍ قَرِيبٍ.

— يَا لَكَ مِنْ أَحْمَقٍ تَعِيسٍ! أَتَزْرَعُ حَرْبًا وَتَزْجُو أَنْ تَحْصُدَ أَمَانًا؟ أَلَمْ تَسْمَعْ أَنَّ: «مَنْ يَزْرَعُ الشُّوكَ لَا يَحْصُدُ بِهِ الْعِنَبَ»؟ فَعُدْ أَدْرَاكَ إِذْنِ، وَإِلَى حَيْثُ أَلْقَتْ رَحْلَهَا أُمَّ عَامِرٍ!

الْخَنْزِيرُ الْكَبِيرُ

أَفَلَتِ خَنْزِيرٌ مِنْ زَرِيْبَتَيْهِ، وَذَهَبَ إِلَى حَوْشِ قَصْرِ صَاحِبِ الضَّيْعَةِ، وَطَافَ بِأَرْجَاءِ سَاحَاتِهِ الْفَسِيْحَةِ؛ طَالِبًا مُسْتَوْدَعَاتِ الْأَقْدَارِ؛ لِيَمْلَأَ بَطْنَهُ مِنْهَا، أَوْ بِرَكَّةً مُوحِلَةً يَنْغَمَسُ فِيهَا، وَتَنْقَلَ مِنْ زَرِيْبَةٍ إِلَى إِصْطَبَلٍ، وَمِنْ مَرْبَلَةٍ إِلَى مَطْبَخٍ، وَكَأَنَّهُ يَطِيرُ فَرَحًا عِنْدَمَا سَقَطَ فِي مُسْتَنْقَعِ أَوْسَاحِ الْقَصْرِ، فَجَعَلَ يَنْمَرُغُ وَيَتَقَلَّبُ فِيهِ، وَأَخِيرًا عَادَ إِلَى زَرِيْبَتَيْهِ، بَعْدَ أَنْ أَشْبَعَ شَهْوَتَهُ، خَنْزِيرٌ لَا شَكَّ فِيهِ، تَكْسُوهُ الْأَقْدَارُ مِنْ فُرْطُوسَتَيْهِ إِلَى ذَيْلِهِ، وَلَمَّا رَأَى الرَّاعِي، قَالَ لَهُ: وَالْآنَ صِفْ لِي يَا صَاحِبِ، مَا شَاهَدْتَ فِي هَذَا الْقَصْرِ الْفَخْمِ أَثْنَاءَ جَوْلَتِكَ؟ فَقَدْ سَمِعْتُ أَوْصَافًا عَجِيْبَةً مُدْهِشَةً مِمَّنْ زَارُوا هَذَا الْقَصْرَ الْعَجِيْبَ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ ذَكَرَ أَنَّ عُرْفَهُ تَتَلَأَلُ بِالْدُرِّ وَالْمَاسِ وَالْيَاقُوتِ.

فَقَالَ الْخَنْزِيرُ: هَذَا كَلَامٌ فَارِعٌ؛ لِأَنِّي لَمْ أَرْ هُنَاكَ لَوْلُؤًا وَلَا مَاسًا، وَكُلُّ مَا لَقِيْتُهُ لَمْ يَكُنْ سِوَى مَا تَتَوَقَّعُ لَهُ نَفْسِي مِنَ الْقَمَامَاتِ وَالْأَقْدَارِ وَالْأَوْسَاحِ.

مُكَافَاةُ السُّنَجَابِ

طَلَبَ مَلِكُ الْعُغَابَةِ خَادِمًا أَمِينًا مُخْلِصًا، صَغِيرَ السِّنِّ، سَلِيمَ الْبُنْيَةِ، خَفِيفَ الْحَرَكَةِ، وَتَقَدَّمَ
السُّنَجَابُ؛ لِيَحْظِيَ بِشَرَفِ الْخِدْمَةِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: إِنِّي أَقْبَلُكَ فِي مَعِيَّتِي، فَإِنْ أَنْتَ أَحْسَنْتَ
الْقِيَامَ بِخِدْمَتِي فِي عُنفوانِ شَبَابِكَ، وَهَبْتُ لَكَ قَدْرًا عَظِيمًا مِنْ أَحْسَنِ مَا فِي الْعُغَابَةِ مِنْ
الْبُنْدُقِ وَالْجَوْزِ عِنْدَمَا تَتَقَدَّمُ فِي الْعُمُرِ.

وَهَكَذَا قَامَ السُّنَجَابُ بِأَعْبَاءِ مَنْصِبِهِ بِكُلِّ هَمَّةٍ وَنَشَاطٍ، مَزْهُوًّا بِخِدْمَةِ سَيِّدِهِ الْمَلِكِ،
لَاهِيًّا عَمَّا لِبَدَنِهِ عَلَيْهِ مِنْ حَقٍّ، إِلَى أَنْ فَاتَ سِنُّ الشَّبَابِ، وَأَدْرَكَهُ الْعَجْزُ عَنِ الْإِسْتِمْرَارِ فِي
تَأْدِيَةِ وَاجِبَاتِهِ، وَتَلْبِيَةِ أَوْامِرِ سَيِّدِهِ.

وَأَقَالَهُ مَلِكُ الْعُغَابَةِ مِنْ مَنْصِبِهِ، بَعْدَمَا مَنَحَهُ وَسَامًا وَلَقَبًا سَامِيًّا، وَكَذَلِكَ أَعْطَاهُ مَا
وَعَدَهُ بِهِ مِنْ أَفْخَرِ أَنْوَاعِ الْبُنْدُقِ وَالْجَوْزِ، وَحَمَلَ السُّنَجَابُ مَا نَالَهُ بِعَرَقِ جَبِينِهِ، نَاهِبًا
إِلَى جِهَةِ نَائِيَةِ مِنَ الْعُغَابَةِ؛ لِيَسْتَمْتَعَ بِهِ فِي مَا بَقِيَ لَهُ مِنَ الْعُمُرِ، بَعِيدًا عَنِ مَتَاعِبِ الْحَيَاةِ
وَهُمُومِهَا.

وَأَمْسَكَ بِجَوْزَةٍ، وَحَاوَلَ عَبَثًا أَنْ يَكْسِرَهَا؛ لِيَنْعَمَ بِأَكْلِ لُبِّهَا؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ أَسْنَانَهُ كَانَتْ
قَدْ نَهَبَتْ مَعَ شَبَابِهِ الَّذِي أَفْنَاهُ فِي سَبِيلِ الْحُصُولِ عَلَى هَذَا الْجَوْزِ النَّمِينِ.

الثقة العمياء

ضَلَّ الحِمَارُ الصَّرِيرُ طَرِيقَهُ، بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، وَتَاهَ فِي مَسَالِكِ الغَابَةِ الكَثِيفَةِ الوَاسِعَةِ، فَظَلَّ يَنْسَكُعُ بَيْنَ الأشْجَارِ، إِلَى أَنْ وَقَفَ حَائِزًا لَا يَدْرِي: أَمَّا سَلَامَتِهِ أَنْ يَتَحَرَّكَ يَمَنَةً أَمْ يَسْرَةً؟

وَأَدْرَكَتُهُ عِنْدئذٍ بَوْمَةٌ^١ كَانَتْ تَحُومُ بَيْنَ الأشْجَارِ، وَعَرَضَتْ عَلَيْهِ اسْتِعْدَادَهَا لِإِرشَادِهِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنَ الغَابَةِ بِسَلَامٍ، وَكَلَّمْنَا نَعْرِفُ أَنَّ البَوْمَةَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُبْصِرَ فِي أَحْلكِ ظَلَامٍ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهَا كُلُّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَعَثَّرَ أَوْ يَتَرَدَّى فِيهِ الحِمَارُ مِنَ الحُفْرِ أَوْ الحَفَائِرِ، وَالوَهَادِ أَوْ المَهَاوِي،^٢ وَالنُّقْرِ وَالأَعْوَارِ، وَالبِرْكِ وَالمُسْتَنْقَعَاتِ، وَقَبْلِ الحِمَارِ عَرَضَهَا، فَفَعَدَتْ عَلَى ظَهْرِهِ وَقَادَتْهُ فِي مَسَالِكِ الغَابَةِ الوَعْرَةِ إِلَى أَنْ خَرَجَتْ بِهِ سَالِمًا إِلَى السِّكَّةِ السُّلْطَانِيَّةِ عِنْدَ بُلُوجِ الصَّبَاحِ.

وَاسْتَضَعَبَ الحِمَارُ أَنْ يُفَارِقَ مِثْلَ هَذَا القَائِدِ الطَّيِّبِ، فَتَوَسَّلَ إِلَى البَوْمَةِ؛ كَيْ لَا تُفَارِقَهُ، فَتَقُودَهُ إِلَى أَنْ يَهْتَدِيَ إِلَى مَنْوَاهُ.

وَقَبِلَتِ البَوْمَةُ، عَن طَيْبَةِ حَاطِرٍ، وَظَلَّتْ مُمْتَطِيَّةً ظَهْرَ الحِمَارِ، مُعْتَزَّةً بِمَكَانَتِهَا، وَسَارَ الاثْنَانِ فِي طَرِيقِهِمَا.

وَإِذْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ وَتَبَدَّدَ الظَّلَامُ، شَعَرَتِ البَوْمَةُ بِاضْطِرَابِ نَظَرِهَا، وَأَنَّ الضَّوْءَ قَدْ أَعْشَاهَا، فَبَدَأَتْ تَزُرُّ عَيْنَيْهَا، حَتَّى إِذَا مَا ارْتَفَعَتِ الشَّمْسُ، وَاشْتَدَّ ضِيَاؤُهَا، فَفَدَّتِ البَوْمَةُ

^١ اليوم والبومة للذكر والأنثى، والجمع أبوام.

^٢ جمع مهوى ومهواة، وهو ما بين الجبلين، ونحو ذلك.

كُلُّ قُدْرَةٍ عَلَى الْإِبْصَارِ، وَأُضْحَتْ عَمِيَاءَ كَالْحِمَارِ الَّذِي تَقُودُهُ، وَلَكِنَّ حُبَّ الْعِظَمَةِ مَنَعَهَا مِنَ
التَّنَحِّيِّ عَنِ مَرْكَزِ الْقِيَادَةِ الَّذِي وَصَلَتْ إِلَيْهِ فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ، وَصَارَتْ لَا تَصْلُحُ لَهُ فِي النَّهَارِ،
وَلِكُنِّي تَجْعَلُ الْحِمَارَ لَا يَشْعُرُ بِمَا آَلَتْ إِلَيْهِ، قَالَتْ لَهُ: حَذَارِ مِنْ أَنْ تَنْحَرِفَ إِلَى الْيَسَارِ؛
لَأَنْبِي أَرَى هُنَاكَ بَرَكَةَ مَاءٍ ... فَمَالَ الْحِمَارُ إِلَى الْيَمِينِ، وَسَقَطَ فِي هَاوِيَةٍ كَانَتْ بَادِيَةً لِلْعَيَانِ،
فَهَلَكَ.

الفلاح وخادمه

بَيْنَمَا كَانَ الْفَلَّاحُ يَسِيرُ نَحْوَ دَارِهِ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ وَمَعَهُ خَادِمُهُ الْأَمِينُ فِي طَرِيقِ الْغَابَةِ،
إِذْ طَلَعَ عَلَيْهِ بَغْتَةً دُبٌّ أَكْبَرُ الْجِسْمِ، وَفِي أَقْلٍ مِنْ لَمَحِ الْبَصْرِ، وَجَدَ نَفْسَهُ فِي حِضْنِهِ
الرَّحْبِ، وَشَعَرَ بِكَتْفِهِ بَيْنَ فَكِّي الدُّبِّ.

فَأَجَالَ الدُّبُّ نَظْرَهُ حَوْلَهُ؛ لِيَرَى مَكَانًا مُنْعَزِلًا هَادِيًا يَذْهَبُ إِلَيْهِ بِفَرِيَسَتِهِ لِيَتَمَتَّعَ بِأَكْلَةِ
شَبِيعِ هَنِيئَةٍ.

وَرَزَقَ الْفَلَّاحُ هَلَعًا يَسْتَعِينُ بِخَادِمِهِ، طَالِبًا مِنْهُ أَنْ يَتَقَدَّمَ لِإِنْقَادِهِ مِنْ هَلَاكِ مُحَقَّقٍ،
وَأَطْلَقَ لِسَانَهُ بِتَذْكِيرِهِ بِوَاجِبِ الْمُرُوءَةِ، وَحَلَاوَةِ التَّضْحِيَةِ فِي سَبِيلِ إِجَارَةِ الْمُسْتَجِيرِ.
وَتَقَدَّمَ الْخَادِمُ مُعَرِّضًا حَيَاتَهُ لِلْخَطَرِ، وَضَرَبَ الدُّبُّ بِفَأْسِهِ عِدَّةَ ضَرْبَاتٍ صَرَغَتْهُ بَعْدَ
أَنْ مَزَقَتْ جِلْدَهُ.

فَلَمَّا أَفَاقَ الْفَلَّاحُ مِنْ نُهُولِهِ، وَشَعَرَ بِزَوَالِ الْخَطَرِ، نَظَرَ إِلَى الدُّبِّ الصَّرِيعِ، ثُمَّ حَدَجَ
الْخَادِمَ بِبَصَرِهِ، وَطَفِقَ يَسُبُّهُ وَيَلْعَنُهُ بِأَقْسَى الشَّتَائِمِ وَاللَّعْنَاتِ.

وَلَمَّا سَأَلَهُ الْخَادِمُ عَنْ عَلَّةِ غَضَبِهِ، قَالَ لَهُ: أَلَمْ تُدْرِكْ — إِلَى الْآنَ — أَيُّهَا الْجَاهِلُ الْأَحْمَقُ،
وَالنَّدْلُ الْجَبَانُ، فِدَا حَةَ مَا سَبَّيْتُ لِي مِنَ الْخَسَارَةِ بِجَهْلِكَ وَرُعُونَتِكَ؟!
تَأْمَلْ وَانظُرْ، أَيُّهَا الْعَبِيُّ، كَيْفَ أَنْكَ أَضَعْتَ عَلَيَّ قِيَمَةَ هَذَا الْفَرُو الثَّمِينِ بِتَمْزِيْقِهِ
بِضَرْبَاتِكَ الطَّائِشَةِ الَّتِي تَكَرَّرَتْ بِلَا دَاعٍ، حَقًّا إِنَّكَ تَسْنَحِقُ أَقْسَى قِصَاصِ!

الْوَزَّةُ الْغَاضِبَةُ

مَرَّ الرَّاعِي يَسُوقُ أَمَامَهُ قَطِيعًا مِنَ الْوَزِّ، وَفِي يَدِهِ قَصَبَةٌ طَوِيلَةٌ كَانَتْ دَائِمَةً التَّنْقِيلَ عَلَى ظُهُورِ أَفْرَادِ الْقَطِيعِ، تَسْتَحْتُهُ عَلَى الْإِسْرَاعِ فِي السَّيْرِ لِإِدْرَاكِ سُوْقِ الْمَدِينَةِ فِي مَعْمَعَانِ حَرَكَتِهِ.

وَاسْتَشَاطَتِ الْإِوْزَاتُ غَضَبًا لِهَذِهِ الْمَعَامَلَةِ الْمُهْيِيَةِ، وَاعْتَرَضَتْ زَعِيمَتُهُنَّ طَرِيقَ أَوَّلِ عَابِرِ سَبِيلٍ، وَزَعَعَتْ فِي وَجْهِهِ بِأَعْلَى صَوْتِهَا قَائِلَةً: أَنْظُرْ يَا سَيِّدِي كَيْفَ يُعَامِلُنَا هَذَا الْغَيْبِيُّ الْأَبْلَةُ؛ لِأَنَّهُ يَجْهَلُ مَاضِيَنَا الْمُشْرِفَ الَّذِي نَسْتَحِقُّ مِنْ أَجْلِهِ كُلَّ تَبَجُّيلٍ وَاحْتِرَامٍ، إِنَّهُ لَمْ يَقْرَأْ تَارِيخَ «رُومًا» الْعَظِيمَةَ؛ لِيَعْرِفَ أَنَّ لِأَسْلَافِنَا فَضْلَ إِنْقَازِهَا مِنَ الْخَرَابِ وَالذَّمَارِ ... فَأَجَابَهَا عَابِرُ السَّبِيلِ قَائِلًا: هَذِهِ قِصَّةٌ لَأَكْتَهَا أَلْسُنُ كُلِّ النَّاسِ، وَهَلْ تَتَنَبَّأَنَّ أَنَّكُمْ — مَعَاشِرَ الْوَزِّ — تَسْتَحِقُّونَ رِعَايَةَ النَّاسِ وَإِكْرَامَهُمْ، مِنْ أَجْلِ مَا فَعَلَهُ أَجْدَادُكُمْ وَجُدُودُ أَجْدَادِكُمْ؟

— طَبَعًا! لَا رَيْبَ فِي ذَلِكَ، وَأَظُنُّكَ تَعْرِفُ أَنَّ أَسْلَافَنَا ...
— نَعَمْ، نَعَمْ، أَعْرِفُ كُلَّ ذَلِكَ، وَقَدْ قَرَأْتُهُ فِي قَدِيمِ الْأَسْفَارِ؛ لِأَنَّهُ حَدَّثَ فِي سَالِفِ الْأَيَّامِ، وَلَكِنْ خَبَّرِينِي بِرَبِّكَ، مَا الَّذِي فَعَلْتَهُ أَنْتِ أَوْ أَصْحَابُكِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ لِخَيْرِ النَّاسِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ مِمَّا يَجْعَلُكُمْ تَطْمَعُونَ فِي إِكْرَامِكُمْ اعْتِرَافًا بِفَضْلِكُمْ؟
— نَحْنُ؟ نَحْنُ أَنْفُسُنَا لَمْ نَأْتِ عَمَلًا، وَلَكِنْ أَسْلَافُنَا ...

أحاديث روسية

– دَعِينَا مِنْ ذِكْرِى السَّلَفِ، وَاتْرُكِيهَا تَرْقُدُ مَعَ أَصْحَابِهَا بِسَلَامٍ، أَمَّا أَنْتِ، وَبَنَاتُ
وَأَبْنَاؤُ جِنْسِكَ، فَالْفَائِدَةُ الْوَحِيدَةُ الْمَرْجُوءَةُ مِنْكُمْ الْآنَ هِيَ إِشْبَاعُ بُطُونِ النَّاسِ بِلُحُومِكُمُ
اللَّذِيذَةِ.

لَا تَقْلُ أَصْلِي وَفَصْلِي أَبَدًا إِنَّمَا أَصْلُ الْفَتَى مَا قَدْ حَصَلَ

الْحِمَارُ يُقَلِّدُ وَسَامًا

يُحْكِي أَنَّ رَجُلًا أَحَبَّ حِمَارَهُ الْفَارِهُ^١ حُبًّا جَمًّا؛ لِأَنَّهُ كَانَ فِي نَظَرِهِ دُرَّةً يَتِيمَةً، قَلَّ أَنْ يَجُودَ بِمِثْلِهَا الزَّمَانُ.

وَلَكِنِّي يَطْمَئِنُّ عَلَيْهِ مِنَ الضِّيَاعِ، عَلَّقَ فِي عُنُقِهِ جَرَسًا صَغِيرًا جَمِيلًا، لَهُ جَلْجَلَةٌ بَعِيدَةٌ الْمَدَى.

وَلَأَوَّلُ وَهْلَةٍ طَارَ الْحِمَارُ فَرَحَانَ بِوَسَامِهِ الرَّثَانِ، فَصَارَ يَتَخَطَّرُ وَيَتَمَيِّسُ فِي مَشْيِيهِ، وَكَلَّمَا رَنَّ صَوْتُ الْجَرَسِ فِي أُذُنَيْهِ زُهِىَ بِهِ، وَازْدَادَ تِيهَا وَعُجْبًا وَدَلَالًا، حَتَّى خَبِلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ سُلْطَانُ زَمَانِهِ.

وَهُنَاكَ مَسْأَلَةٌ يَجِبُ أَنْ نَقَرَّهَا، عَلَى رَغْمِ مَا فِيهَا مِمَّا كَانَ يَصِحُّ أَنْ يَبْقَى فِي طَيِّ الْكِتْمَانِ؛ وَهِيَ أَنَّ صَاحِبَنَا كَانَ قَدِ اعْتَادَ أَنْ يَسْمَحَ لِنَفْسِهِ، مِنْ وَقْتِ إِلَى آخَرَ، كَلَّمَا نَقَّتْ ضَفَادِعُ بَطْنِهِ^٢، أَنْ يَنْزُلِقَ فِي حَدَائِقِ أَوْ حُقُولِ الْجِيرَانِ، مِنْ فَتْحَةٍ فِي السُّورِ أَوْ فُرْجَةٍ فِي السِّيَاحِ؛ لِيُقَرِّظَ مَا يَصِلُ إِلَيْهِ فَمُهُ مِنْ نَبَاتِ الْقَمْحِ أَوْ الشَّعِيرِ أَوْ الشُّوفَانِ، أَوْ مَا تَقَرُّ عَيْنُهُ بِرُؤْيَيْهِ مِنَ الْخَضِرَاوَاتِ الْغَضَّةِ النَّضِيرَةِ كَالْخَسِّ وَالْكَرْنَبِ أَوْ قَرَّةِ الْعَيْنِ^٣، وَكَانَ يَحْدُثُ ذَلِكَ دُونَ أَنْ يَشْعُرَ أَحَدٌ بِدُخُولِهِ أَوْ خُرُوجِهِ، أَمَّا الْآنَ فَإِنَّ الْحَالَ قَدْ تَبَدَّلَتْ، وَأَضْحَى سِتْرُهُ مَفْضُوحًا بِذَلِكَ الْوَسَامِ، فَكَانَ كَلَّمَا حَاوَلَ أَنْ يَنْسَلَّ كَعَادَتِهِ الْقَدِيمَةِ؛ لِيُشْبِعَ شَهِيئَتَهُ مِنْ

^١ النشيط الخفيف الحسن المنظر.

^٢ أي: شعر بالجوع.

^٣ أو قُرَّة، وهو اسم نبت ينمو في مجاري المياه يشبه الجرجير.

حُقُولِ الْجِرَانِ تَنَبَّهَ أَصْحَابُهَا مِنْ جَرَسٍ ٤ وَسَامِهِ إِلَى وُجُودِهِ، وَحَالُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَغْبَتِهِ
بِعَصِيهِمُ الْغَلِيظَةِ، حَتَّى يَعُودَ أَدْرَاغَهُ بَعْدَ أَنْ يُشْبِعُوهُ ضَرْبًا مُبْرَحًا، يَتْرُكُ كُلَّ مَرَّةٍ حَبَارَهُ
الْمُؤَلِّمَ بِجِلْدِهِ.

وَهَكَذَا لَمْ يَنْقُضِ الصَّيْفُ عَلَى حَامِلِ الْوَسَامِ هَذَا حَتَّى صَارَ عَلَى الْجِلْدِ وَالْعَظْمِ لَا
يُخْشَى عَلَيْهِ مِنْ عَيْنِ الْحَسُودِ أَوْ سَطْوِ اللَّصُوصِ إِذَا جُرِّدَ عُنُقُهُ مِنَ الْقِلَادَةِ الرَّنَّانَةِ.
«اللَّصُّ لَا يَسْرِقُ نَاقُوسًا.»

٤ الجرس أو الجرس: الصوت أو الرنين.

الدُّبُّ وَالْفَارَةُ

سَرَقَ ذَنْبٌ حَرُوفًا سَمِينًا مِنْ خِرَافِ الْقَطِيعِ الْأَمَنِ، وَجَرَى بِهِ لَا يَلُوي عَلَى شَيْءٍ إِلَى نَاحِيَةِ نَائِيَةٍ مِنَ الْعَابَةِ الْمُجَاوِرَةِ، وَطَبَعًا لَمْ يُنْتَظَرُ أَنْ يَكُونَ الدُّبُّ مَقْرَأً^١ لِحَرُوفٍ، وَأَنْ يَعْتَبِيَ بِرَاحَتِهِ وَسَلَامَةِ صِحَّتِهِ، بَلِ الْعَكْسُ مَا وَقَعَ، وَكَانَ مُتَوَقَّعًا^٢؛ إِذْ عَرَزَ الدُّبُّ أَنْيَابَهُ الْحَادَّةَ فِي جِسْمِ الْحَرُوفِ، وَأَرَبَهُ^٣ إِرْبًا، فَالْتَهَمَ مِنْهُ قَدْرًا أَغْصَهُ، بَلِ أَبْشَمَهُ، وَتَرَكَ الْبَاقِي كَيْ يَأْكُلَهُ فِي وَقَعَةٍ تَالِيَةٍ، وَرَبِضَ إِلَى جَانِبِهِ يَحْرُسُهُ، وَيُفَكِّرُ فِي وَسِيلَةٍ لِاقْتِنَاصِ فَرِيَسَةٍ جَدِيدَةٍ إِلَى أَنْ غَلَبَهُ سُلْطَانُ النُّعَاسِ فَرَاحَ يَغُطُّ فِي عَالَمِ الْأَحْلَامِ.

وَكَانَتْ هُنَاكَ فَارَةٌ صَغِيرَةٌ، عَضَّهَا الْجُوعُ، فَفَعَدَتْ تَرْقُبُهُ مِنْ بَعِيدٍ، مُعَلِّلَةً نَفْسَهَا بِأَنَّ الدُّبَّ سَيَذْهَبُ بَعْدَ أَنْ يَشْبَعَ، فَيَتْرَكَ فَضْلَاتِ مَائِدَتِهِ لِلْجِيَاعِ الْمَسَاكِينِ أَمْثَالِهَا. وَلَمَّا رَأَتْ أَنَّ أَمْلَهَا لَمْ يَتَحَقَّقْ، وَشَعَرَتْ بِأَنْيَابِ الْجُوعِ تَنْهَشُ أَحْشَاءَهَا، اسْتَحَلَّتْ لِنَفْسِهَا قِطْعَةً صَغِيرَةً تُمْسِكُ رَمَقَهَا بِهَا، إِلَى أَنْ تُرْزَقَ بِمَا يَكْفِي لِسَدِّ حَاجَتِهَا. وَسَارَتْ تَتَكَسَّبُ^٤ حَتَّى أَدْرَكَتْ فَضْلَاتِ الْفَرِيَسَةِ، وَقَضَمَتْ مِنْهَا قِضْمَةً صَغِيرَةً، ثُمَّ هَرَوَلَتْ رَاجِعَةً إِلَى جُحْرِهَا فِي جِذْعِ الشَّجَرَةِ، وَتَنَبَّهَ الدُّبُّ فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي أَطْلَقَتْ فِيهَا الْفَارَةُ سَاقِيَهَا الصَّغِيرَتَيْنِ لِلرَّيْحِ؛ كَيْ تَنْجُوَ بِغَنِيمَتِهَا التَّافِهِةِ، وَأَطْلُقَ بِدَوْرِهِ صَيِّحَاتِ

^١ المقرء: الذي يُقْرئ الضيف؛ أي يكرمه.

^٢ تَوَقَّعَ الْأَمْرَ: أَي انْتَظَرَ حَاصِلَهُ.

^٣ مَرَّبَهُ.

^٤ الْكَسْبَةُ: مِثْلُ الْخَائِفِ الْمُخْفِي نَفْسَهُ، وَفِي مِصْرٍ تُعْرَفُ بِالذَّحْلَبَةِ.

الاسْتِعَاثَةِ وَطَلَبِ النَّجْدَةِ، قَائِلًا: يَا خَفِيرًا!^٥ يَا بُولِيْسًا!^٦ أَغِيثُونِي! الْحَقُّوا الْحَرَامِي! فَقَدُ
هَرَبَ بِكُلِّ مَالِي، وَجَرَدَنِي مِمَّا ادَّخَرْتُ لِإِعْيَالِي!
وَقَامَتِ الدُّنْيَا وَقَعَدَتْ لِلْقَبْضِ عَلَى اللَّصِّ الْخَطِيرِ الَّذِي يُهْدِدُ الْأَمْنَ الْعَامَّ وَسَلَامَ
الْغَابَةِ، وَتَقْدِيمِهِ لِلْمَحَاكِمَةِ؛ لِيُنَالَ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ صَارِمِ الْعِقَابِ، عَلَى مَا جَنَاهُ عَلَيْهِ بَطْنُهُ
الْقَاسِي الَّذِي لَا يَرْعَوِي لِقَوْلِ أَمْرٍ وَلَا تَهْدِيدِ حَاكِمٍ، إِذَا مَا نَقَّتْ ضَفَادِعُهُ.^٧
«الْمَعْدَةُ الَّتِي تَهْزَأُ عِنْدَ الْجُوعِ بِكُلِّ سُلْطَانٍ.»

^٥ المَجِير والحَامِي.

^٦ كلمة شرطي تُقَابِلُ هذه اللفظة العالمية.

^٧ جاع.

الطَّبَّاحُ وَسَنُّورُهُ الْمُحْبُوبُ

اشْتَهَرَ طَبَّاحُ الْبُلْدَةِ بِالْعِلْمِ الْعَزِيزِ وَطَلَّاقَةِ اللِّسَانِ، وَذَهَبَ ذَاتَ يَوْمٍ إِلَى حَانَةِ قَرِيبَةٍ لِيُحْيِيَ الذُّكْرَى الْأُولَى لَوْفَاةٍ نَدِيمٍ عَزِيزٍ بِاحْتِسَاءِ كَأْسَيْنِ مِنَ الْخَمْرَةِ عَلَى رُوحِهِ الْمَرْحَةِ الطَّاهِرَةِ، تَارِكًا قَطْعَهُ الْمُحْبُوبَ لِيَحْرُسَ مَخْزَنَ الْأَطْعِمَةِ اللَّذِيذَةِ الَّتِي تَعَبَ كَثِيرًا فِي تَهْيِئَتِهَا. وَلَمَّا عَادَ — وَكَانَ قَدْ انْتَشَى مِنَ الشَّرَابِ — وَجَدَ الْهَرَّ رَابِضًا عَلَى الْأَرْضِ، تَحَوُّطُهُ قُشُورُ فُطَايِرِ الشُّبَارِقِ وَالشُّطَائِرِ وَفَتَاتُ الْكَعْكِ الْمُبَعَّرَةِ هُنَا وَهَنَاكَ، يَهْرُ كَعَادَتِهِ هَرِيرًا لَيِّنًا، وَفِي فَمِهِ وَبَيْنَ مَخْلَبَيْهِ عِظَامٌ دَجَاجَةٍ يَنْحَضُّهَا وَيُدَاعِبُهَا، فَطَارَ صَوَابُ الطَّاهِي لِهَذَا الْمُنْظَرِ الَّذِي أَفْرَعَهُ، وَطَفِقَ يُعِنِّفُ الْهَرَّ مَغِيظًا، وَرَاحَ يَنْهَرُهُ بِمَا حَصَرَهُ مِنْ عِبَارَاتٍ كَانَتْ يَحْرُصُ كُلَّ الْحَرِصِ عَلَى اسْتِظْهَارِهَا لِيُلْقِيَهَا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمُنَاسَبَاتِ؛ فَقَالَ لَهُ: وَيْحَكَ أَيُّهَا اللُّصُّ الشَّرِّهْ! قَاتَلَكَ اللَّهُ أَيُّهَا الْخَائِنُ الْغَدَّارُ وَالْوَعْدُ اللَّئِيمُ! أَلَمْ تَخْجَلْ مِنْ فَعْلَتِكَ تِلْكَ بِمَرَأَى وَمَسْمَعٍ مِنْ هَذِهِ الْحَيْطَانِ؟ لَمْ يَخْطُرْ لِي بِنَالِ قَبْلِ الْآنَ أَنْ أَجِدَ فِيكَ لِصًّا شَرِيرًا بَعْدَ مَا اشْتَهَرْتَ عِنْدَ الْقَاصِي وَالِدَّانِي بِالتَّقْوَى وَالصَّلَاحِ؛ لِكَثْرَةِ هَرِيرِكَ وَخَرِيرِكَ الَّذِي خَدَعْتَ بِهِ النَّاسَ فَحَسَبُوهُ تَمْتَمَةً بِالصَّلَاةِ وَالِابْتِهَالِ وَاللَّهَجِ بِذِكْرِ اللَّهِ! وَبِئْسَ لِمَنِ اتَّخَذَ الدَّيْنَ مَطِيَّةً لِلدُّنْيَا! وَيَا لَهُ مِنْ عَارٍ شَنِيعٍ حِينَ يَدْرِي الْجِيرَانُ بِأَمْرِكَ، فَيُوصِدُونَ فِي وَجْهِكَ أَبْوَابَ بُيُوتِهِمْ وَمَطَابِجِهِمْ، وَلَيْتَ الْأَمْرَ يَقِفُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، بَلْ أَظُنُّهُمْ سَيَلْحِقُونَكَ

^١ أي: يأكل ما عليها من اللحم، وباللغة الدارجة نقول: «مصمص».

بِاللَّعْنَاتِ، وَيَصْمُونَكَ بِشَتَّى الْوَصْمَاتِ الشَّائِنَةِ؛ لِأَنَّكَ لَمْ تَحْفَظْ لِي وَلَهُمْ حُرْمَةَ الْمَمَالِحَةِ! ٢
تَبَّأُ لَكَ أَيُّهَا الْ...!

وَأَنْطَلَقَ لِسَانُ الطَّاهِي بِالشَّنَمِ وَالتَّوْبِيخِ وَاسْتَنْزَالِ اللَّعْنَاتِ، مَاخُودًا بِإِعْجَابِهِ بِبَلَاغَةِ
مَنْطِقِهِ، بَيْنَمَا كَانَ الْهَرُّ الْحَبِيثُ يُحَدِّجُهُ بِنَظْرَةِ التَّعَجُّبِ الْوُدِيِّ، وَيُعْمَلُ لِسَانَهُ وَأَسْنَانَهُ
لِلْإِتْيَانِ عَلَى مَا كَانَ بَاقِيًا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ طَعَامٍ شَهِيٍّ.
«وَمَنْ اسْتَرْعَى الذُّئْبَ فَقَدْ ظَلَمَ.»

٢ مَالِحَةٌ مُمَالِحَةٌ: أَي أَكَلَ عَيْشًا وَمَلَحًا مَعَهُ مَعَاهِدَةً عَلَى الْوَفَاءِ وَالْإِخْلَاصِ.

الأفعى تستعطف الفلاح

انسلت حية إلى كوخ فلاح، ولما رأت صاحبهُ انطلق لسانها ذو الشعبتين يلتمس منه بذلاقتِه — التي خدعت آدم وحواء — أن يسمح لها بالإقامة معه؛ لتؤانسهُ وتساعدهُ على تربيَةِ صغارِهِ، والإهتمام بشئونِ تنقيهِهِم وتلقيهِهِم مبادئِ الحكمةِ التي اخنص الخالقُ بها بناتِ جنسها؛ ذلك لأنها ستمت عيشة الوحده والكسل، فهامت على وجهها تبحثُ عن عملٍ نافع.

قالت: يُحتملُ أن يكونَ قد بلغك أننا معشر الأفاعي من الحيوانات العفقة^١ التي تتنكر لمن يحسن إليها، أسوة بالذئاب والبشر ... عفوا يا سيدي! ... عفوا! وألف عفوا! فقد زلق لساني بما اعدنا أن نكرره فيما بيننا على سبيل التعميم، جهلاً وخطأ؛ لأن بينكم — بلا شك — من لا ينطبق عليه هذا الوصف أمثال حضرتكم؛ كما أنكم تجملون أنتم عند اتهام الأفاعي بأنها مجلبة الشر والنحس إلى هذه الدنيا الجميلة، دون استثناءٍ لأمثالي الذين عاشوا كل حياتهم عيشة شريفة مشرفة، وها أنت ترى بعينيك أنني جازفت بتعريض حياتي لخطر القتل؛ كي أعرض على حضرتكم استعدادي للقيام بكل ما تطلبونه مني من الأعمال الشريفة؛ خصوصاً العناية بصغاركم؛ لأن هذا هو ما تصبوا إليه نفسي منذ صغري؛ وإني أعدكم بشرفي ... أي سأقدر لكم فضلكم ومعروفكم وأخدمكم بكل جوارحي.

^١ جمع عق أو عاق، وهو الذي ينكر الإحسان.

وَقَالَ لَهَا الْفَلَّاحُ: رَبِّمَا كُنْتُ صَادِقَةً وَمُخْلِصَةً فِيمَا عَرَضْتَهُ عَلَيَّ، وَلَكِنِّي أَخْشَىٰ إِنْ أَنَا
مَدَدْتُ إِلَيْكَ يَدَ الصَّدَاقَةِ وَالتَّرْحَابِ أَطْمَعَ ذَلِكَ غَيْرِكَ مِنْ بَنَاتِ جِنْسِكَ بِالدُّخُولِ إِلَىٰ مَنْزِلِي،
وَعَيْرِكَ يَتَّبَعُهُ غَيْرُهُ حَتَّىٰ يُمَسِّيَ مَنْزِلِي مَبَاءَةً لِلْأَقَاعِي وَالْحَيَّاتِ، وَأَظُنُّكَ تَرَبِّبَيْنِ^٢ بِنَفْسِكَ عَن
ضَمَانِ عَدَمِ نُشُوبِ أَنْبِيَاءِ بَعْضِهَا فِي لَحْمِ عِيَالِي، وَعَلَيْهِ أَرَىٰ نَفْسِي مُضْطَرًّا يَا سَيِّدَتِي أُمَّ
عُثْمَانَ،^٣ الشَّهِيرَةَ بِحِكْمَتِهَا، أَنْ أُخْبِرِكَ أَنَّ أُمَّتَالِي لَا يُمَكِّنُهُمْ أَنْ يَسْمَحُوا لِأُمَّتَالِكَ بِالْعَيْشِ
فِي مَنَازِلِهِمْ، مَهْمَا انْتَحَلْنَا لِأَنْفُسِنَا مِنَ الْأَعْدَارِ؛ لِتَسْوِيعِ هَذَا الْعَمَلِ.

وَأَنْهَالَ عَلَىٰ زَائِرَتِهِ بِضَرْبَةِ فَأْسٍ كَانَتْ الْقَاضِيَّةَ.
«الْعِرْقُ دَسَّاسٌ.»

^٢ أربأ به عن كذا أي: لا يرضاه له.

^٣ كنية الحية.

الذبابة المغرورة

حَطَّتْ ذُبَابَةٌ مَرْهُوَّةٌ^١ عَلَى الْعَرَبَةِ الْمَلِكِيَّةِ فِي اثْنَاءِ مُرُورِهَا فِي أَحَدِ شَوَارِعِ الْعَاصِمَةِ، وَرَأَتْ غُبارًا مُرْتَفِعًا، وَأَنَاسًا عَلَى جَانِبِي الطَّرِيقِ، يُصَفِّقُونَ وَيَهْتَفُونَ ابْتِهَاجًا بِرُؤْيَةِ مَلِكِهِمْ، وَخَيْلٍ إِلَيْهَا أَنَّ مَا تَرَاهُ قَدْ حَدَثَ مِنْ أَجْلِهَا، فَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا: «لِمَذَا لَمْ يُتَّحَ لِي أَنْ أَعْرِفَ قَبْلَ الْآنَ مَا لِي مِنَ الْخَطَرِ^٢ وَعَظَمَةِ الشَّأْنِ، حَتَّى أَقْمَتُ بِمُرُورِي الدُّنْيَا وَأَقَعَدْتُهَا، فَأَنْزَرْتُ كُلَّ هَذَا الْغُبَارِ، وَأَحَدْتُ هَذِهِ الضُّوضَاءَ.»

قَالَتْ ذَلِكَ، وَوَثِبَتْ طَائِرَةً إِلَى ظَهْرِ أَحَدِ جَوَادِي الْمَرْكَبَةِ الْمَلِكِيَّةِ.

وَاتَّفَقَ عِنْدَئِذٍ انْطِلَاقَ أَوَّلِ مَدْفَعٍ مِنْ مَدَافِعِ التَّرْحِيبِ وَنَقَرَ^٣ الْجَوَادُ الَّذِي حَطَّتْ عَلَى ظَهْرِهِ، فَخَاطَبَتْهُ قَائِلَةً: «أَرْجُوكِ الْمَعْدِرَةَ؛ لِأَنِّي مَا كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ ثِقَلِي عَظِيمٌ بِهَذَا الْمِقْدَارِ الَّذِي لَا يَحْتَمِلُهُ ظَهْرُكَ، وَأَرْجُوكِ أَنْ تَصْبِرِي قَلِيلًا حَتَّى يَهْدَأَ الشَّعْبُ مِنْ هَتَافِهِ وَتَصْفِيقِهِ الَّذِي اشْتَدَّ الْآنَ عِنْدَمَا رَأَيْتِي أَقُودُ الْمَرْكَبَةَ بِنَفْسِي.»

وَعِنْدَ ذَلِكَ هَزَّ الْجَوَادُ ذَيْلَهُ فَأَصَابَ الذُّبَابَةَ فَهَوَتْ صَرِيعَةً ...

^١ مُعْجَبَةٌ بِنَفْسِهَا.

^٢ الشَّرْفُ وَارْتِفَاعُ الْقَدْرِ.

^٣ وَثَبَ صُعْدًا.

النَّارُ! النَّارُ!

اشْتَرَكَ ثَلَاثَةٌ فِي تِجَارَةٍ، رَبِحَتْ ثَرْوَةً عَظِيمَةً بَعْدَ عِدَّةِ سَنَوَاتٍ قَضَوْهَا فِي الْكَدِّ وَالْجِدِّ وَالْإِقْتِصَادِ وَالْحِرْمَانِ.

وَحَانَ وَقْتُ اقْتِسَامِ الْأَرْبَاحِ؛ لِيَأْخُذَ كُلُّ مِنْهُمْ نَصِيبَهُ، فَاجْتَمَعُوا فِي مَنْجَرِهِمْ، وَحَدَّثَ بَيْنَهُمْ مَا يَكْتُرُ حُدُوثُهُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمُنَاسَبَاتِ فِي كُلِّ أَنْحَاءِ الْعَالَمِ، وَبِخَاصَّةٍ فِي بِلَادِ الشَّرْقِ، مِنَ الْأَخْذِ وَالرَّدِّ، وَالْمُشَادَّةِ وَالْمُجَادَلَةِ بِخُصُوصِ حِصَّةِ كُلِّ مِنْهُمْ، وَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ دَوَّى فِي كُلِّ الْمَكَانِ صَوْتُ اسْتِغَاثَةٍ؛ لِأَنَّ نَارًا شَبَّتْ فِي ذَاتِ الْمَبْنَى الَّذِي كَانَ فِيهِ مَتَجَرُّهُمْ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ — وَقَدْ وَقَفَ مَدْعُورًا: «هَيَّا بِنَا إِلَى الْإِسْرَاعِ فِي إِنْقَادِ مَا يُمْكِنُ إِنْقَادُهُ، قَبْلَمَا تَلْتَهُمُ النَّارُ كُلُّ شَيْءٍ، وَلَنْتَرِكَ الْمَحَاسِبَةَ إِلَى مَا بَعْدُ.»

وَصَاحَ الثَّانِي قَائِلًا: «وَلَكِنِّي لَا أَتَزَحُّرُحُ مِنْ هُنَا قَبْلَ أَنْ تَعْتَرِفَا لِي بِحَقِّي فِي مَبْلَغِ الْأَلْفِ الَّذِي يَخُصُّنِي بِنَاءً عَلَى نَصِّ الْفُقْرَةِ الثَّلَاثَةِ مِنَ الْبَنْدِ الْعَاشِرِ مِنْ عَقْدِ شَرِكَتِنَا الْمُسَجَّلِ ...»

وَعِنْدَيْدِ اشْتِدَّتْ صَيْحَاتُ الْهَلَعِ وَطَلَبِ النَّجْدَةِ وَالْعَوْتِ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ الْمُحِيطَةِ بِالْمَتَجَرِّ؛ وَكَانَتْ كَلِمَةُ «النَّارُ! النَّارُ!» تَتَكَرَّرُ بِصَوْتِ مُفْرَعٍ.

وَهُمَّ الشَّرِيكَانِ؛ يَقْصِدَانِ النَّجَاةَ، وَلَكِنَّ الشَّرِيكَ الثَّلَاثَ اعْتَرَضَ سَبِيلَهُمَا، وَصَاحَ بِهِمَا قَائِلًا: «كَلَّا! وَأَلْفَ كَلَّا! فَلَا يُمْكِنُ لِأَحَدِكُمَا أَنْ يَخْرُجَ مِنْ هُنَا قَبْلَ أَنْ نُرَاجِعَ مَا بَيْنَنَا مِنَ الْحِسَابِ؛ لِأَرَى كَيْفَ جَازَ لَكُمَا أَنْ تَعْمِطَانِي حَقِّي وَتَنْتَقِصَانِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ مِنْ

نَصِيبِي فِي أَرْبَاحِ الشَّرِكَةِ، وَلِنَقْعُدْ هُنَا حَتَّى نَسْتَوْثِقَ مِنْ صِحَّةِ الْحِسَابِ وَنُنْهِيَ مَا بَيْنَنَا مِنْ خِلَافٍ قَبْلَ أَنْ نُنْفَكِّرَ فِي مُبَارَحَةِ هَذَا الْمَكَانِ.»

فَأَجَابَهُ الشَّرِيكَانِ وَقَالَا بِنَفْسٍ وَاحِدٍ: «هَذَا كَلَامٌ فَارِغٌ! وَنَحْنُ لَا نَسْمَحُ لِمِثْلِكَ بِإِثْمَانَا بِالْخِيَانَةِ، وَعَدَمِ مُرَاعَاةِ وَاجِبِ الْأَمَانَةِ، وَسَنْثَبِتُ لَكَ مِنْ دَفَاتِرِكَ وَدَفَاتِرِ الشَّرِكَةِ أَنَّ الْمِيزَانِيَّةَ الَّتِي أَمَامَنَا لَا يَشُوبُهَا أَقْلٌ شَكٌّ فِي صِحَّةِ أَرْقَامِهَا...»

وَكَانَ الْجَدَلُ بِخُصُوصِ حِسَابِ الْأَرْبَاحِ الَّتِي تَخْصُ كُلًّا مِنْهُمْ قَدْ أَنْسَاهُمْ خَطَرَ النَّيِّرَانِ الْمُحْدِقَةِ بِهِمْ، فَاسْتَمَرُّوا فِي خِصَامِهِمْ إِلَى أَنْ أَحَاطَتْ بِهِمُ أَلْسِنَةُ اللَّهَبِ، فَحَالَتْ دُونَ نَجَاتِهِمْ، ثُمَّ التَّهَمَّتْهُمْ وَدَفَاتِرَ حِسَابِهِمْ، وَكُلَّ مَا كَانَ لَهُمْ مِنْ مَالٍ وَسِلْعٍ وَعَقَارٍ.

زَهْرَةُ الْحَقْلِ الزَّرْقَاءُ وَالْخُنْفَسَاءُ

كَانَتِ الزَّهْرَةُ الصَّغِيرَةُ الزَّرْقَاءُ الَّتِي نَبَتَتْ مُنْزَوِيَّةً فِي رُكْنٍ مَهْجُورٍ مِنَ الْحَدِيقَةِ الْغَنَاءِ تَعَانِي غُصَّةَ الشُّعُورِ بِالضَّعْفِ وَالذُّبُولِ وَدُنُو الْأَجْلِ، وَفَجَاءَةً انْتَصَبَتْ وَاقِفَةً عَلَى عُوْدِهَا فِي صَحْوَةِ مَوْتِهَا، وَطَاطَأَتْ رَأْسَهَا لِأَنَّ بَرْدَ اللَّيْلِ لَمْ يَتْرُكْ لَهَا مِنَ الْقُوَّةِ مَا يُمْكِنُهَا مِنْ حَمْلِهَا مُنْتَصِبَةً فَوْقَ عَاتِقِهَا، وَطَفَقَتْ تَنَاجِي نَسِيمِ الْفَجْرِ الْبَارِدِ الَّذِي كَانَ يُدَاعِبُ أَوْرَاقَهَا، وَقَالَتْ مُتَأَوِّهَةً — وَهِيَ تَكَادُ تَلْفِظُ آخِرَ أَنْفَاسِهَا: «أَه، لَوْ انْبَلَجَ النَّهَارُ، وَأَشْرَقَتِ الشَّمْسُ! إِنِّي أَوْمِنُ بِأَنَّهَا — جَلَّتْ قُدْرَتُهَا — سَتُرْسَلُ لِي مَعَ أَشْعَثِهَا الذَّهَبِيَّةِ حَيَاةً جَدِيدَةً...!»

وَسَمِعَتْهَا الْخُنْفَسَاءُ الَّتِي كَانَتْ جَالِسَةً بِالْقُرْبِ مِنْهَا، فَانْتَهَرَتْهَا قَائِلَةً: «مَا هَذَا الْهَدْيَانُ الضَّائِعُ فِي جَوْ هَذَا الْفَجْرِ الصَّاقِعِ؟ أَتُظَنِّينَ أَيَّتُهَا النَّبْتَةُ الْغَيْبِيَُّةُ الْحَقِيرَةُ أَنَّ الشَّمْسَ بِجَلَالَةِ قُدْرَتِهَا لَهَا مِنْ وَقْتِهَا الثَّمِينِ مَا يَسْمَحُ بِالتَّفَكُّيرِ فِي أَمْرِ سَلَامَةِ زَهْرَةٍ لَا قِيَمَةَ لِحَيَاتِهَا مِثْلِكَ أَوْ هَلَاكِهَا؟ فَلَوْ كُنْتِ قَدْ تَجَوَّلْتِ فِي أَرْجَاءِ الْعَالَمِ الْكَبِيرِ — كَمَا فَعَلْتِ — لَرَأَيْتِ أَنَّ الْمُرُوجَ الْوَسِيعَةَ، وَالْمَرَاعِيَ الْفَسِيحَةَ، وَحُقُولَ الْغُلَّالِ بِأَنْوَاعِهَا الْعَدِيدَةِ تَسْتَمِدُّ حَيَاتَهَا مِنْ هَذِهِ الشَّمْسِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تَرْجِيحُ مِنْهَا الْعُورَ عَلَى اسْتِبْقَاءِ حَيَاتِكَ، وَعَلِمْتِ أَنَّ هَذِهِ الشَّمْسَ — عَزَّتْ وَجَلَّتْ — لَا تُشْرِقُ إِلَّا عَلَى الْأَشْجَارِ الْبَاسِقَةِ، كَالْبُلُوطِ وَالْأَرْزِ وَالْحُورِ وَالرَّانِ؛ لِتَمُدَّهَا بِأَسْبَابِ الْحَيَاةِ، كَمَا أَنَّهَا تَكْسُو النَّبَاتَاتِ وَالزُّهُورَ الْعِطْرِيَّةَ بِمَا يُبْهِرُ الْأَنْظَارَ مِنَ الْأَلْوَانِ الْبَدِيعَةِ الَّتِي تُسِيلُ الدُّمُوعَ مِنْ عُيُونِ الْمَنَاجِلِ عِنْدَمَا تَضْطَرُّهَا قَسْوَةُ الْإِنْسَانِ وَجَشَعُهُ إِلَى حَصْدِهَا، أَمَا أَنْتِ فَلَسْتِ بِالْعَظِيمَةِ الْقَدْرِ أَوْ الْكَبِيرَةِ الْحَجْمِ، وَلَا بِالْجَمِيلَةِ الْمَنْظَرِ أَوْ الذَّكِيَّةِ الرَّائِحَةِ حَتَّى تَطْمَعِي فِي رِعَايَةِ هَذِهِ الشَّمْسِ

— جَلَّ جَلَالُهَا — لِأَنَّ لَدَيْهَا مِنَ الْأُمُورِ الْهَامَّةِ مَا لَا يَسْمَحُ لَهَا بِالِاسْتِغْنَاءِ عَنْ شُعَاعِ
مَنْ أَشَعَّتْهَا الذَّهَبِيَّةُ تُرْسُلَهَا لِأَجْلِكَ، فَالزَّمِي الصَّمْتَ، وَادْبُلِي لِتَمُوتِي بِسَلَامٍ، فَتَسْتَرِيحِي
وَتُرِيحِينَا مِنْ سَمَاعِ تَوَسَّلَاتِكَ وَأَنْيُنِكَ وَأَهَاتِكَ.»

وَلَكِنَّ الشَّمْسَ الْمَحْبُوبَةَ أَشْرَقَتْ كَعَادَتِهَا فِي الصَّبَاحِ، وَأَرْسَلَتْ أَشَعَّتَهَا إِلَى كُلِّ مَا وَقَعَ
تَحْتَ بَصَرِهَا، كَبِيرًا كَانَ أَمْ صَغِيرًا.
وَهَكَذَا شَمِلَتْ هَذِهِ الْأَشْعَةُ زَهْرَتَنَا الصَّغِيرَةَ الزَّرْقَاءَ الَّتِي أُذْبَلَهَا بَرْدُ اللَّيْلِ، فَأَعَادَتْ
إِلَيْهَا حَيَاتَهَا وَسَعَادَتَهَا.

مُعَاهَدَةٌ صِدَاقَةٍ وَعَدَمُ اعْتِدَاءٍ

تَنَاوَلَ الْكَلْبَانِ أَكْلَةَ شَبْعٍ مِنْ طَعَامٍ وَافِرٍ لَذِيذٍ فِي مَادُبَةٍ أُقِيمَتْ لِتَأْيِيدِ السَّلَامِ، ثُمَّ تَمَدَّدَا فِي ظِلِّ الشَّجَرَةِ الْوَارِفِ، يَتَجَادَبَانِ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ فِي هُدُوءٍ وَسَلَامٍ وَأَطْمِئْنَانٍ، وَتَحَدَّثَا عَنْ كُلِّ مَا يَهْمُهُمَا أَمْرُهُ، وَعَلَى الْخُصُوصِ عَنْ عَيْشَةِ الْكَلَابِ أُمَّثَلِهِمَا، وَعَنْ تَقَلُّبَاتِهَا الْعَنِيفَةِ بَيْنَ شِظْفٍ وَنَعِيمٍ، وَسَادَةِ أَشْرَارٍ وَأَبْرَارٍ، وَطَهَاةِ لُؤْمَاءٍ وَكُرَمَاءٍ.

ثُمَّ تَنَقَّلَا فِي الْحَدِيثِ مِنْ فُلْسَفَةِ الْحَيَاةِ إِلَى هِنَاءِ الصِّدَاقَةِ وَجَمَالِ الْمَحَبَّةِ، الَّتِي تَأْمُرُ بِهَا كُلُّ الشَّرَائِعِ وَالْأَدْيَانِ، وَقَالَ أَوْلَاهُمَا: مَا أَحَلَى الْمَوَدَّةَ عِنْدَمَا نَسْتَحْكِمُ حَلَقَاتُهَا بَيْنَ كَلْبَيْنِ، مِثْلِي وَمِثْلِكَ، مَثَلًا، فَحَنُّ مِنْ أَعْضَاءِ هَذَا الْبَيْتِ، وَعَلَى كَلْبَيْنَا تَقَعُ تَبِعَةٌ جِرَاسَةٍ رِتَاجِهِ،^٢ وَرَدَّ اللَّصُوصِ عَنْ أَعْتَابِهِ، وَلَيْسَتْ لَنَا مَطَامِعُ كَبِيرَةٌ كَغَيْرِنَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الْجَشَعَةِ؛ لِذَلِكَ يَجِبُ أَنْ نَتَعَايَشَ بِالْأَلْفَةِ وَالْمَوَدَّةِ مِنَ الْآنَ فَصَاعِدًا، فَلَا نَسْمَحَ لِخِصَامِ أَنْ يَشْجُرَ بَيْنَنَا مَهْمًا عَظُمَتْ أَسْبَابُهَا، وَمَا دُمْتَ مِنْ رَأْيِي فَلَنْتَعَاهُدَ عَلَى الْعَيْشِ أَصْدِقَاءَ مُخْلِصِينَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَهَاتِ يَدَكَ لِتَتَصَافَقَ عَلَي هَذَا الْعَهْدِ!

فَنَهَضَ ثَانِيَهُمَا عَلَى مِرْفَقَيْهِ، وَهَزَّ رَأْسَهُ اسْتِحْسَانًا لِهَذَا الْكَلَامِ، ثُمَّ أَقْعَى^٣ وَمَدَّ يَدَهُ لِيُصَافِقَ رَفِيقَهُ ...

^١ حالة الحي في حياته.

^٢ الباب العظيم أو ما نسقيه في مصر: «بوابة».

^٣ أقعى الكلب: أي جلس على مؤخره.

أحاديث روسية

وَعِنْدَيْدِ شَاءَ الْحِظُّ السَّيِّئُ أَنْ يَنْفَتِحَ شُبَّاكُ الْمَطْبِخِ وَتُلْقَى مِنْهُ عَظْمَةٌ صَغِيرَةٌ أَطَارَتْ
صَوَابَهُمَا وَبَدَدَتْ عُهُودَهُمَا، فَكَانَتْ مَثَارَ نِزَاعٍ تَقَطَّعَتْ بِسَبَبِهِ أَوَاصِرُ الْمَحَبَّةِ وَالصَّدَاقَةِ
وَالْأُخُوَّةِ، وَتَمَزَّقَ لَحْمٌ كُلُّ مِنْهُمَا، بِأَنْيَابِ أَخِيهِ.
وَهَكَذَا تَكُونُ الْمَحَبَّةُ وَإِلَّا فَلَا!

صَيَادُ الْفَرَّاشِ

فِي أَفْقَرِ أَحْيَاءِ الْمَدِينَةِ الرَّوسِيَّةِ الصَّغِيرَةِ، عَاشَ ثَلَاثَةَ إِخْوَةٍ عَيْشَةَ الْبُؤْسِ وَالْمُسْغَبَةِ،
وَلَازَمَهُمُ النَّحْسُ فِي كُلِّ مَا مَارَسُوهُ مِنَ الْأَعْمَالِ، فَكَانُوا يَنْدُبُونَ حَظَّهُمُ الْعَاثِرَ كُلَّمَا نُكِبُوا
بِخَسَارَةٍ.

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ طَرَقَتْ بِأَبْهَمِ السَّيِّدَةِ «فَرْتَنَى»،^١ وَاعْتَذَرَتْ لَهُمْ عَنْ تَقْصِيرِهَا فِي أَمْرِهِمْ،
وَطَلَبَتْ مِنْهُمْ أَنْ يُصَيِّفُوهَا عَلَى قَدْرِ مَا تَسْمَحُ أَحْوَالُهُمْ.
وَطَهَّرَتْ بَوَادِرُ الْحَظِّ فِي كُلِّ أَعْمَالِ الْأَخِ الْأَكْبَرِ التَّجَارِيَةِ فَاتَّرَى، حَتَّى قِيلَ عَنْهُ: إِنَّهُ
أَصْبَحَ «إِذَا مَسَّ التُّرَابَ صَارَ نَهَبًا»، بَعْدَمَا كَانَتْ الْحَالُ عَكْسَ ذَلِكَ.
وَكَذَلِكَ نَجَحَ الْأَخُ الثَّانِي فِي كُلِّ مَا قَامَ بِهِ مِنْ مَهَامٍ مَنَاصِبِهِ الْحُكُومِيَّةِ حَتَّى بَلَغَ أَعْلَى
الْمَرَازِكِ.

أَمَّا الْأَخُ الثَّلَاثُ فَكَانَ يَصْرِفُ وَقْتَهُ مِنَ الصَّبَاحِ حَتَّى الْمَسَاءِ بِالتَّلَهِّيِّ بِصَيْدِ الْفَرَّاشِ
وَ«نَسَّ الدُّبَابَ»، وَقَدْ قَالَ أَصْحَابُهُ: إِنَّ حَظَّهُ لَمَّا كَانَ فِي السَّحَابِ كَانَ عَقْلُهُ رَاقِدًا فِي
التُّرَابِ، فَلَمَّا بَارَحَتْهُمُ السَّيِّدَةُ «فَرْتَنَى» بَكَى وَانْتَحَبَ؛ لِأَنَّهَا تَرَكَتْهُ كَمَا كَانَ عِنْدَمَا عَرَفْتَهُ.

^١ وهي: Fortuna or Fortune ربة الحظ عند الرومان.

الْحِصَاةُ وَالْمَاسَةُ

سَقَطَتْ مَاسَةٌ ثَمِينَةٌ مِنْ قِلَادَةٍ كَانَتْ فِي عُنُقِ صَاحِبَتِهَا الْعَظِيمَةِ، وَبَقِيَتْ مَطْمُورَةً فِي الْأَرْضِ بَيْنَ الْحَصَى وَالتُّرَابِ زَمَنًا طَوِيلًا، إِلَى أَنْ عَنَرَ عَلَيْهَا جَوْهَرِيٌّ كَانَ سَائِرًا فِي طَرِيقِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَذَهَبَ بِهَا إِلَى الْمَلِكِ وَبَاعَهُ بِأَيَّاهَا، فَأَمَرَ الْمَلِكُ بِوَضْعِهَا فِي أَظْهَرِ مَكَانٍ مِنْ تَاجِهِ.

وَاتَّصَلَ بِحِصَاةٍ كَانَتْ تَرْفُدُ بِجَانِبِ هَذِهِ الْمَاسَةِ خَبْرٌ مَا أَدْرَكَتُهُ جَارَتُهَا الْمَاسَةُ مِنْ حَظِّ سَعِيدٍ، فَهَزَّهَا سُرُورُ الْأَمَلِ بِبُلُوغِ مَا بَلَغَتْهُ جَارَتُهَا السَّابِقَةُ، وَقَالَتْ لِأَوَّلِ عَابِرٍ سَبِيلٍ رَأَتْهُ مُنْجِهَا نَحْوَ الْعَاصِمَةِ: «أَيُّهَا الْمَوَاطِنُ الْعَزِيزُ! أَرْجُوكَ أَنْ تَمُدَّ يَدَكَ وَتَلْتَقِطَنِي، وَتَحْمِلَنِي مَعَكَ إِلَى الْمَدِينَةِ؛ لِأَنِّي سَتَمْتُ طُولَ الرُّقَادِ هُنَا فِي أَحْضَانِ الْوَحْلِ وَالتُّرَابِ، فَقَدْ كَانَتْ تَرْفُدُ فِي جَوَارِي حِصَاةٍ مِثْلِي، بَلْ أَصْغَرُ مِنِّي حَجْمًا، وَوَقَعَ عَلَيْهَا نَظْرٌ فَاضِلٍ مِثْلِكَ، فَالْتَقَطْتُهَا وَحَمَلْتُهَا إِلَى قَصْرِ الْمَلِكِ حَيْثُ نَالَتْ حُظُوءَ (مَنْزِلَةً) فِي عَيْنَيْهِ، فَبَلَغَتْ أَعْلَى مَرَاتِبِ الْعِزِّ وَالْجَاهِ وَالسُّوْدِدِ، أَرْجُوكَ يَا سَيِّدِي، وَأَسْتَحْلِفُكَ بِكُلِّ عَزِيزٍ لَدَيْكَ، أَنْ تُسَاعِدَنِي عَلَى الْوُصُولِ إِلَى جَلَالَةِ الْمَلِكِ؛ لِأَنِّي وَاثِقَةٌ مِنْ أَنَّي سَأُنَالُ حُظُوءَ فِي عَيْنَيْهِ كَمَا نَالَتْ تِلْكَ الْحَجْرَةَ الصَّغِيرَةَ الَّتِي كَانَتْ جَارَتِي.»

فَالْتَقَطَهَا الرَّجُلُ شَفَقَةً عَلَيْهَا، وَوَضَعَهَا فِي جَيْبِهِ إِلَى أَنْ بَلَغَ بِهَا الْمَدِينَةَ، وَكَانَتْ كُلُّ الْوَقْتِ تُعَلُّ نَفْسَهَا بِحَلَاوَةِ الْأَمَلِ بِقُرْبِ بُلُوغِهَا مَنْزِلَةَ صَدِيقَتِهَا الْقَدِيمَةِ فِي تَاجِ الْمَلِكِ، وَلَكِنَّ الَّذِي وَقَعَ كَانَ غَيْرَ مَا تَوَقَّعَتْ؛ لِأَنَّ الَّذِي حَمَلَهَا أَلْقَى بِهَا إِلَى حَيْثُ بَقِيَتْ إِلَى أَنْ وُضِعَتْ فِي الْمَوْضِعِ اللَّائِقِ بِهَا فِي رِصْفِ الطَّرِيقِ.

الغراب والبومة

اجتمع البوم والغراب في مجلس أنس، ودار بينهما الحديث إلى أن قال أولهما لثانيهما: «كم وكم من المرات وددت لو أتيتحت لي الفرصة لأعرب لك عن عظيم إعجابي بصوتك الرخيم وتقديري لجماله! والحق أقول لك: إنني لا أجد بين كل الطيور الصداحة، التي تعج بها الغابة من يبرك أو يضارعك في حلاوة الصوت، وحسن الإيقاع والتنغيم والتطريب، فعندما أسمعك تصدح أتمنى ألا أحرَمَ سماعك إلى آخر لحظة من حياتي، ولما تسكت أنتظر — على أحر من الجمر — عودك إلى الشدو والتغريد.»

فأجاب ثانيهما شاكرًا لأولهما حسن تقديره؛ قال: «وأنا بدوري أنتهز هذه الفرصة السعيدة لأعبر لك عما أشعر به من فرط السرور، كلما سمعت تغريدك الشجي في سكون الليل، مما يحملني على الاعتقاد بأنه أحسن ما سمعت من أصوات الطيور قاطبة.»

وسمعهما «العصفور الدوري» وكان على مقربة من مجلسهما، فحاطبهما قائلاً: «يا صديقي العزيزين، ليس لي ما أستطيع به أن أمنعكما أن تتقارضا النناء وتتبادلا المديح والتمليق والإطراء، إلى أن يبيح صوتكما، ولكن كل ذلك لا يمكن أن يغير وجه الحقيقة الراهنة التي يعرفها كل من له أذنان وإعيان...»

والآن، أتعلم لماذا أطرى الغراب البوم؟
ذلك لأن البوم تملق الغراب! ...

أَبُو الْأَشْبَالِ يَصْطَفِي فَيْلًا

لِسَبَبِ مَا، اصْطَفَى مَلَكَ الْحَيَوَانَاتِ^١ فَيْلًا لِيَكُونَ جَلِيسَهُ وَنَدِيمَهُ وَأَمِينَ سِرِّهِ، وَانْطَلَقَتْ أَلْسُنُ أَهْلِ الْغَابَةِ تَلُوكُ الْخَبَرَ، وَتُعَقَّبُ عَلَيْهِ بِمَا يَعْنُ لِأَصْحَابِهَا مِنْ آرَاءٍ وَمُلَاحَظَاتٍ، فَمَنْ قَائِلٌ: أَنْ لَيْسَ لِلْفَيْلِ مِنْ حُسْنِ الْمَنْظَرِ، أَوْ تَوَقُّدِ الذَّهْنِ، أَوْ سُرْعَةِ الْخَاطِرِ مَا يُحِبُّ هَذَا الْاِخْتِيَارَ غَيْرَ الْمَوْفِقِ.

وَقَالَ أَبُو نَوْفَلٍ^٢، وَهُوَ يُلَوِّحُ بِذَيْلِهِ تَيْهًا وَعُجْبًا: «لَوْ كَانَ لِلْفَيْلِ مِثْلُ هَذَا، لَكُنْتُ أَدْرَكْتُ سَبَبَ اخْتِيَارِهِ لِهَذَا الْمَنْصِبِ السَّامِيِّ.»

وَقَالَ الدُّبُّ: «أَوْ لَوْ كَانَ لَهُ مِثْلُ مَخَالِبِي الْحَادَّةِ لَمَا كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يَنْتَفِدَ هَذَا الْاِصْطِفَاءً.»

وَقَالَ التَّوْرُ — وَهُوَ يَهْزُ رَأْسَهُ مُحْتَجًّا: «أُظُنُّ أَنَّ صَاحِبَ الْجَلَالَةِ أَعْجَبَ بِبَابِي الْفَيْلِ الطَّوِيلِينَ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّهَا قَرْنَايَ.»

وَقَالَ الْحِمَارُ، بَعْدَ أَنْ نَفَضَ رَأْسَهُ فَاهْتَزَّتْ أُذُنَاهُ: «يُدْهَسُنِي إِلَّا أَجِدَ بَيْنَكُمْ، أَيُّهَا الرَّفَاقُ، مَنْ أَدْرَكَ أَنَّ لِلْفَيْلِ أُذُنَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ كَهَاتَيْنِ ... وَلِأَجْلِهِمَا اصْطَفَاهُ مَلِكَنَا الْمَحْبُوبُ!»

^١ كُنْيَةُ الْأَسَدِ.

^٢ كُنْيَةُ الثَّعْلَبِ.

العقَابُ وَالْخُلْدُ

حَلَقَ الْعُقَابُ وَعَنْزَتُهُ^١ فَوْقَ الْعَابَةِ لِيَكْتَشِفَا أَمْنَعَ مَكَانٍ فِيهَا، وَأَخِيرًا وَجَدَا بَلُوطَةً عَتِيقَةً سَامِقَةَ الْفُرُوعِ وَالْأَغْصَانِ، وَاخْتَارَاهَا لِيَبْنِيَا فِيهَا مَقْنَاتَهُمَا^٢ حَيْثُ يُرَبِّيَانِ فِرَاحَهُمَا فِي مَنَجَى مِنْ عَدْرِ الْأَعْدَاءِ.

وَشَعَرَ بِهِمَا خُلْدٌ^٣ يَعْيشُ فِي جُحْرِ تَحْتَ الْبَلُوطَةِ؛ فَنَادَاهُمَا مُحَذِّرًا مِنْ قُرْبِ سُقُوطِ الْبَلُوطَةِ؛ لِأَنَّ جُدُورَهَا قَدْ أَبْلَاهَا الْهَرَمُ، فَأَصْبَحَتْ لَا تَقْوَى عَلَى احْتِمَالِ مَا فَوْقَهَا مِنْ أَثْقَالٍ.

فَقَالَ الْعُقَابُ لِرَفِيقَتِهِ: «وَيْحَ هَذَا الْأَعْمَى الْمَغْرُورِ، إِذْ يَطُنُّ أَنَّ مَلِكَ الطُّيُورِ الَّذِي دَاعَتْ شُهُرَتُهُ بِجِدَّةِ الْبَصْرِ، يَقْبَلُ مِنْ مِثْلِهِ نَصْحًا أَوْ تَحذِيرًا.»
وَبَنَى الْعُقَابُ وَكْرَهُ فِي أَعْلَى مَكَانٍ مِنَ الْبَلُوطَةِ الْعَتِيقَةِ هَازِنًا بِنُصْحِ جَارِهِ الْخُلْدِ، ضَارِبًا بِهِ عَرَضَ الْحَائِطِ.

وَجَاءَ الرَّبِيعُ وَأَعْقَبَهُ الصَّيْفُ، وَامْتَلَأَتْ أَرْجَاءُ الْوَكْرِ بِبَاكُورَةِ فِرَاحِهِمَا، وَقَرَّتْ أَعْيُنُهُمَا بِرُؤْيَتِهِمْ يَلْعَبُونَ وَيَمْرَحُونَ وَيَصْنُونَ (يَصِيحُونَ).

وَفِي فَجْرِ أَحَدِ الْأَيَّامِ خَرَجَ الْعُقَابُ يَطْلُبُ صَيْدًا لِفُطُورِ فِرَاحِهِ، وَرَفِيقَتِهِ، وَعَادَ فَرِحًا يَحْمِلُ لَهُمْ طَعَامًا شَهِيًّا وَافِرًا، فَلَمْ يَجِدْهُمْ فِي وَكْرِهِمْ فَوْقَ الْبَلُوطَةِ، بَلْ وَجَدَ الْبَلُوطَةَ قَدْ

^١ العنزة: أنثى الصقور والعقبان.

^٢ المقناة: وكر الصنواء وهي أنثى العقبان.

^٣ حيوان ليس له عينان ولا أذنان، يعيش تحت الأرض، والجمع «مناجد» من غير لفظها.

وَقَعَتْ كَمَا تَوَقَّعَ الْخُلْدُ، وَسَحَقَتْ تَحْتَ ثِقْلِهَا وَكُرَّهُ، بِمَا كَانَ فِيهِ مِنْ فِرَاحِهِ مَعَ رَفِيقَتِهِ
وَهَنَائِهِ.

فَصَاحَ مَنْ فَرَطَ يَأْسَهُ قَائِلًا: «وَيْلٌ لِي، مَا أَتَعَسَنِي وَأَشْقَانِي! لَقَدْ جُوزِيتُ بِمَا أَسْتَحِقُّ
عَلَى اسْتِخْفَافِي بِنُصْحِ الْخُلْدِ وَتَحْذِيرِهِ، وَلَكِنْ مَنْ كَانَ يَدْرِي أَنَّ خُلْدًا حَقِيرًا لَهُ مِنَ الرَّأْيِ
مَا يُعْنَدُّ بِهِ، أَوْ يَصِحُّ أَنْ يُرَكَّنَ إِلَيْهِ.»

فَأَجَابَهُ الْخُلْدُ بِكُلِّ هُدُوءٍ وَسُكُونٍ: «لَيْتَكَ نَزَلْتَ مِنْ سَمَاءِ كَبْرِيَاءِكَ، وَلَمْ تَشْمَخْ بِأَنْفِكَ
مُزْدَرِيًّا بِكَلَامِي، وَأَنْعَمْتَ النَّظَرَ فِي مَا ذَكَرْتَهُ لَكَ، ذَاكِرًا أَنِّي أَعِيشُ مَذْقَاعًا فِي بَطْنِ الْأَرْضِ
مَعَ جُذُورِ الْأَشْجَارِ، فَلَا عَجَبَ إِذَا كُنْتُ أَدْرِي بِمَوَاضِعِ الضَّعْفِ مِمَّنْ يَعِيشُونَ فِي أَعَالِيهَا.»

النَّقدُ الأَثَرِيُّ

عَثَرَ أُمِّي جَاهِلٌ عَلَى قِطْعَةٍ مِنْ نُقُودٍ أَثَرِيَّةٍ، تَعْلُوهَا قَشْرَةٌ سَمِيكَةٌ مِنَ الصِّدَا وَالتُّرَابِ،
وَرَأَاهَا أَحَدُ هُوَاةِ النُّقُودِ الْقَدِيمَةِ، وَقَدَّرَ قِيمَتَهَا الأَثَرِيَّةَ، وَعَرَضَ مَبْلَغًا مَعْقُولًا لِيَشْتَرِيَهَا
بِهِ، فَرَفَضَ، وَاسْتَمَهَلَهُ لِلْغَدِ.

وَلَمَّا خَلَا بِنَفْسِهِ، سَكَتَ بُرْهَةً، ثُمَّ هَزَّ رَأْسَهُ، وَهَمَّهَمَ^٢ قَائِلًا: «إِذَا كَانَتْ قِيمَةُ هَذَا
النَّقْدِ — بَرَعْمٌ مَا هُوَ عَلَيْهِ الآنَ مِنْ قَبَاحَةِ الْمَنْظَرِ لِمَا يَكْسُوهُ مِنَ الصِّدَا وَالْوَسْخِ — قَدْ
بَلَغَتْ هَذَا الْحَدَّ الْكَبِيرَ، فَكَمْ وَكَمْ تَكُونُ قِيمَتُهُ بَعْدَمَا أَنْظَفُهُ، وَأَجْلُوهُ، وَأُصِقِلُهُ، إِلَى أَنْ
يَصِيرَ أَشَدَّ لَمَعَانًا مِنْ قُرْصِ الشَّمْسِ.»

وَقَامَ مِنْ فُورِهِ، وَأَحْضَرَ رَمْلًا وَرَمَادًا وَلَيْمُونًا (حَامِضًا) وَخِرْقَةً مَتِينَةً، وَطَفِقَ يَحْكُ
قِطْعَةَ النُّقُودِ بِالرَّمْلِ أَوْ الرَّمَادِ الْمَعْجُونِ بِعَصِيرِ اللَّيْمُونِ، وَيُدْلِكُهَا بِكُلِّ جُهْدِهِ بِالْخِرْقَةِ
الَّتِي مَعَهُ، حَتَّى تَصَبَّبَ الْعَرَقُ مِنْ جَبِينِهِ عَلَيْهَا.

وَأخِيرًا خَطَرَ لَهُ أَنْ يَسْتَعِينَ بِالسِّفَنِ^٣ وَالْمِبْرَدِ، إِلَى أَنْ زَالَ كُلُّ مَا كَانَ عَلَيْهَا مِنْ صِدَا
وَوَسْخٍ، وَزَالَ مَعَهُ كُلُّ أَثَرٍ لِنَقِشٍ أَوْ رَسْمٍ أَوْ كِتَابَةٍ، بَارِزَةً كَانَتْ أَوْ غَاطِسَةً، وَأَصْبَحَ يَلْمَعُ
لَمَعَانًا يُبْهِرُ الْأَنْظَارَ.

^١ المفرد هاو، (من هوى يهوى).

^٢ تكلم كلامًا خفيًا.

^٣ المعروف في مصر بورق السنفرة.

أحاديث روسية

وَلَمَّا عَرَضَهَا لِلْبَيْعِ، وَلَمْ يَجِدْ مَنْ يَشْتَرِيهَا بِفَلْسٍ وَاحِدٍ، قَالَ لِنَفْسِهِ: «حَقًّا! إِنَّ الَّذِي
أَرَادَ الْبَارِحَةَ أَنْ يَشْتَرِيَهَا مِنِّي كَانَ إِمًّا جَاهِلًا أَوْ مَعْتُوهًا.»

الغنيُّ والفقيرُ

حَدَّثَ فِي بَعْضِ السَّنِينَ الْخَوَالِي أَنَّ عَاشَ فِي الْمَدِينَةِ غَنِيٌّ يَدْخُرُ الْقَنَاظِيرَ الْمُقَنْطَرَةَ مِنْ الْمَالِ فِي خَزَائِنِهِ، وَقَدْ اشْتَهَرَ بِالْبُخْلِ؛ حَتَّى قِيلَ: إِنَّهُ لَمْ يُحْسِنْ بِدَرَاهِمٍ وَاحِدٍ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُعْزِينَ وَالْفُقَرَاءِ.

وَصَارَ سُكَّانُ الْمَدِينَةِ يَتَنَادَرُونَ^١ عَلَى بَعْضِهِمْ بِنَوَادِرِ بُخْلِهِ، حَتَّى بَلَغَهُ خَبْرُ ذَلِكَ، فَاسْتَاءَ، ثُمَّ عَزَمَ عَلَى تَطْهِيرِ سُمْعَتِهِ، وَلَا سِيَّمَا بَيْنَ أَهْلِهِ وَجِيرَانِهِ، مِمَّا لَحِقَهَا مِنْ أَدْرَانِ^٢ هَذِهِ الْأَخْبَارِ الَّتِي لَا تُشْرَفُ، فَأَعْلَنَ عَزْمَهُ عَلَى مَدِّ الْمَوَائِدِ فِي مَسَاءِ يَوْمِ السَّبْتِ مِنْ كُلِّ أُسْبُوعٍ لِإِطْعَامِ مَنْ يَتَقَدَّمُ لِتَنَاوُلِ الطَّعَامِ، مِمَّنْ أَخْنَى عَلَيْهِمُ الدَّهْرُ.

وَانْتَشَرَ الْخَبْرُ كَانْتِشَارِ النَّارِ فِي الْهَشِيمِ،^٣ وَلَمَّا رَأَى الْجِيرَانُ رِتَاجَ الْغَنِيِّ مَفْتُوحًا عَلَى مِصْرَاعِيهِ مَسَاءَ يَوْمِ السَّبْتِ لِاسْتِقْبَالِ الضُّيُوفِ الْجَائِعَةِ، لَمْ يُصَدِّقُوا أَعْيُنَهُمْ، وَأَشْفَقُوا عَلَى غَنِيَّتِهِمْ؛ إِذْ ظَنُّوا أَنَّ هَذَا السَّخَاءَ يُمْكِنُ أَنْ يُؤَدِّيَ بِهِ إِلَى اللَّحَاقِ بِضُيُوفِهِ بَعْدَ زَمَنِ قَصِيرٍ.

^١ يتحدثون بالنواتر.

^٢ أوساخ.

^٣ التَّبْتُ الْيَابِسُ.

^٤ باب كبير.

وَلَكِنَّ الْبَخِيلَ كَانَ أَحْرَصَ عَلَى مَصْلَحَتِهِ مِنَ الَّذِينَ أَشْفَقُوا عَلَيْهِ؛ ذَلِكَ لِأَنَّهُ أَطْلَقَ كِلَابَهُ الْمُفْتَرِسَةَ عَصَرَ يَوْمِ السَّبْتِ، فَانْتَشَرَتْ فِي الدَّارِ وَمَدَاخِلِهَا، فَلَمْ يَجْسُرْ عَلَى الدُّنُوِّ مِنْهَا أَحَدٌ مِنَ الَّذِينَ حَضَرُوا، وَهُمْ يُعَلِّونَ أَنْفُسَهُمْ بِأَكْلَةِ شَبَعِ.

أَمَّا الَّذِينَ دَفَعْنَهُمْ مَسْبَعَتُهُمْ مِنَ الْبُؤْسَاءِ وَالْمَسَاكِينِ إِلَى الصَّبْرِ وَالْإِنْتِظَارِ، وَمَحَاوِلَةِ الدُّخُولِ إِلَى مَوَائِدِ الطَّعَامِ بِرَغْمِ يَقْظَةِ الْكِلَابِ الْحَارِسَةِ، فَإِنَّهُمْ — بَعْدَ أَنْ دَبَّ الْيَأْسُ فِي نَفُوسِهِمْ — ارْتَدُّوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ وَقَدَّ رَضُوا مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ.^٥

وَهَكَذَا جَعَلَ أَلْسِنَةَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ تَلْهُجُ بِذِكْرِ الْكَرَمِ الْحَاتِمِيِّ الَّذِي تَجَلَّى^٦ فِي فَتْحِ أَبْوَابِ دَارِهِ لِلجَائِعِينَ مِنَ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، وَقَدْ نَسُوا أَنَّ الْكِلَابَ الْمُفْتَرِسَةَ الَّتِي كَانَتْ تَتَوَلَّى حِرَاسَةَ أَبْوَابِ هَذَا الْغَنِيِّ قَدْ حَالَتْ دُونَ دُنُوِّ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْفُقَرَاءِ الْجَائِعِينَ إِلَى مَوَائِدِهِ الشَّهِيَّةِ.

^٥ مثل يقال عند القناعة بالسلامة لمن سعى إلى أمر ولم ينله، غير أنه لم يعط.

^٦ ظهر وتكشَّف.

الدُّبُّ فِي بَيْتِ الْكِلَابِ

كَانَ ذَلِكَ فِي إِحْدَى اللَّيَالِي الْمُظْلِمَةِ، لَمَّا حَاوَلَ الدُّبُّ أَنْ يَتَسَلَّقَ حَائِطَ حَظِيرَةِ الْغَنَمِ،
وَسَقَطَ فِي بَيْتِ كِلَابٍ جِرَاسَتِهَا.

فَهَاجَتِ الْكِلَابُ وَمَاجَتْ، وَنَبَحَتْ نُبَاحًا عَالِيًا، بَيْنَمَا كَانَتْ تَتَحَفَّرُ لِلوُثُوبِ عَلَيْهِ
لِإِفْتِرَاسِهِ.

وَسَمِعَهُمُ الْحُرَّاسُ، فَظَنُّوا أَنَّ لَصًا أَدْمِيًّا قَدِ انْسَلَّ إِلَى الْحَظِيرَةِ، فَهَزَلُوا إِلَى أَبْوَابِهَا،
وَأَحْكَمُوا إِغْلَاقَهَا، ثُمَّ أَوْقَدُوا مَشَاعِلَهُمُ الشَّدِيدَةَ الضِّيَاءِ، وَأَنْدَفَعُوا يَبْحَثُونَ عَنِ الْحَرَامِيِّ
اللَّعِينِ، وَبَدَلًا مِنْ أَنْ يَجِدُوا لَصًا أَدْمِيًّا، وَجَدُوا الدُّبَّ قَابِعًا فِي ظِلِّ (رُكْنٍ)، مُنْتَصِبَ
الشَّعْرِ، سَانِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْحَائِطِ، نَاطِرًا إِلَيْهِمْ بِعَيْنَيْنِ تَقْدَحَانِ شَرًّا، وَأُنْيَابُهُ الْبَادِيَةُ تَحْتَ
حَظْمِهِ الشَّامِرِ، تَتَهَدَّدُ بِتَمْزِيقِ لَحْمِ كُلِّ مَنْ تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِالِاقْتِرَابِ مِنْهُ لِلْقَبْضِ عَلَيْهِ.

وَأَنْتَهَرَ فُرْصَةَ تَرَدُّدِ الْحُرَّاسِ؛ فَخَاطَبَهُمْ بِلِسَانٍ مَعْسُولٍ، وَقَالَ: «خَبَّرُونِي أَيُّهَا
الأَصْدِقَاءُ الأَعْرَاءُ، مَا الدَّاعِي لِكُلِّ هَذَا الاضْطِرَابِ وَاللَّجَبِ؟ أَلَسْتُ صَدِيقَكُمْ الْقَدِيمَ! أَوْ
بِالأُخْرَى أَخَاكُمْ الْحَمِيمَ؟ لَقَدْ أَتَيْتُكُمْ بِكُلِّ عَوَاطِفِ الإِخْلَاصِ وَالْحُبِّ، وَلَمْ يَحْطُرْ بِبَالِي
أَيُّ خَاطِرٍ أَثِيمٍ نَحْوَكُمْ، فَلَنْتَسَ مَا مَضَى، وَالْقَدِيمُ عَلَيْهِ الرَّدِيمُ، وَدَعُونَا نَنْهَادَنَّ إِلَى أَنْ
نَتَّصَلَاحَ، وَإِنِّي أَعِدُّكُمْ وَعَدًّا صَادِقًا أَلَّا آخُذَ مِنْ خِرْفَانِكُمْ بَعْدَ الآنَ، وَإِذَا شِئْتُمْ أَنْ تَتَرَكُّوا
أَمْرَ جِرَاسَةِ غَنَمِكُمْ إِلَيَّ فَإِنِّي أُقْسِمُ لَكُمْ، بِكُلِّ مَا هُوَ عَزِيزٌ عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ إِنِّي أَحْمِيهَا وَأُدَافِعُ
عَنْهَا بِكُلِّ قُوَايِ ...»

وَهُنَا قَاطَعَهُ رَئِيسُ الْحُرَّاسِ قَائِلًا: دَعْنَا مِنْ كُلِّ هَذَا الْكَلَامِ الْمَعْسُولِ، وَأَعِدْزِنِي
سَمْعَكَ أَيُّهَا الْأَعْبَرُ ذَا الْوَجْهَيْنِ! وَاعْلَمْ أَنِّي أَفْهَمُ جَيِّدًا طَبِيعَةَ الذُّنَابِ، وَيَسْتَحِيلُ عَلَيَّ أَنْ
أُسَالِمَ ذَنْبًا قَبْلَ أَنْ أَنْزِعَ عَنْهُ جِلْدَهُ وَأَنْيَابَهُ؛ لِأَنِّي سَمِعْتُ مِنْ آبَائِي وَأَجْدَادِي: «أَنَّ مَنْ
شَبَّ عَلَى خُلُقٍ شَابَ عَلَيْهِ»، وَ«أَنَّ الطَّبِيعَةَ الَّتِي فِي الْبَدَنِ لَا يُغَيِّرُهَا غَيْرُ الْكَفَنِ».

البخيل والكنز

كَانَ الْعِفْرِيْتُ يُخْفِي كَنْزًا ثَمِينًا فِي سِرْدَابٍ^١ تَحْتَ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الْمَدِينَةِ، وَفَجَأَهُ أَمْرُهُ رَئِيسُ الشَّيَاطِينِ بِالرَّحِيلِ إِلَى بِلَادٍ بَعِيدَةٍ يَبْقَى فِيهَا زَمَانًا طَوِيلًا قَبْلَ أَنْ يَعُودَ، وَوَقَعَ صَاحِبُنَا فِي حَيْصٍ بَيِّصٍ؛ لِأَنَّ كَنْزَهُ كَانَ ثَقِيلَ الْحِمْلِ يَنْعَدُّ نَقْلَهُ مِنْ مَخْبِئِهِ، وَيَخْشَى عَلَيْهِ مِنَ الضَّيَاعِ إِذَا تَرَكَهُ قَبْلَ أَنْ يُودِعَهُ حِرْزًا حَرِيْرًا.

وَخَطَرَ لَهُ أَنْ يَبْنِي مَخْبَأً مَنِيعًا يَتَوَلَّى رِصْدَهُ حَارِسٌ أَمِينٌ يَدْفَعُ إِلَيْهِ أَجْرًا كَبِيرًا يَتَنَاسَبُ وَجَسَامَةَ التَّبِعَةِ الَّتِي سَتَلْقَى عَلَى عَاتِقِهِ، وَلَكِنَّهُ تَذَكَّرَ أَنَّ ذَلِكَ يَسْتَغْرِقُ وَقْتًا طَوِيلًا بَيْنَ الْبِنَاءِ وَالْبَحْثِ عَنِ «الْحَارِسِ الْأَمِينِ» الَّذِي أَصْبَحَ أُنْدَرَ مِنَ الْكِبْرِيَةِ الْأَحْمَرِ.

وَأَخِيرًا تَذَكَّرَ أَنَّ صَاحِبَ الْبَيْتِ الَّذِي يَعْلُو مَخْبَأَ كَنْزِهِ مَشْهُورٌ بِالْبُخْلِ وَالشُّحِّ، وَأَنَّ لَا أَهْلَ لَهُ، فَهَدَّتْهُ عِبْقَرِيَّتُهُ إِلَى أَنْ يُوَكَّلَ أَمْرَ الْكَنْزِ إِلَيْهِ، فَحَمَلَ كَنْزَهُ وَصَعَدَ بِهِ إِلَيْهِ، وَبَعْدَ أَنْ حَيَّاهُ أَحْسَنَ تَحِيَّةٍ، وَضَعَ الْكَنْزَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَقَالَ لَهُ: «يَا صَدِيقِي الْعَزِيزِ، قَدْ كُنْتُ أَحْتَفِظُ بِهَذَا فِي سِرْدَابٍ تَحْتَ دَارِكِ، وَالْيَوْمَ أُمِرْتُ أَنْ أَرْحَلَ إِلَى بِلَادٍ بَعِيدَةٍ لَسْتُ أَعْرِفُ مَتَى أَعُودُ مِنْهَا، وَبِمَا أَنْ ظَرُوفِي لَا تَسْمَحُ لِي بِحَمَلِهِ مَعِي، فَإِنِّي أَتْرُكُهُ لَكَ مَلْكًَا حَلَالًا تُنْفِقُهُ — إِنْ شِئْتَ — فِيمَا يَحْلُو لَكَ أَوْ يَعُودُ عَلَيْكَ بِالْهِنَاءِ وَالسُّرُورِ؛ لِأَنَّكَ أَحَقُّ بِهِ مِنْ سِوَاكَ، وَلَسْتُ أَطْلُبُ مِنْكَ سِوَى شَيْءٍ لَسْتُ أَطْنُهُ يَثْقُلُ عَلَيْكَ، وَهُوَ أَنْ تُوصِي بِمَالِكَ لِي بَعْدَ عُمْرٍ طَوِيلٍ.»

قَالَ ذَلِكَ، وَاسْتَحْفَى مِنَ الْبُخِيلِ.

^١ يقال: إن لفظة «سَرَب» أعرق في اللغة، فاختر لنفسك ما يحلو.

أحاديث روسية

وَبَعْدَ زَمَنِ عَادَ مِنَ الْبِلَادِ الْبَعِيدَةِ، وَطَبَعًا نَهَبَ تَوًّا لِيَرَى مَصِيرَ كَنْزِهِ ... فَمَاذَا وَجَدَ؟
وَجَدَ مَا وَثَبَ لَهُ قَلْبُهُ طَرَبًا ... وَجَدَ الْبَخِيلَ جُنَّةً هَامِدَةً مُسْتَوِيَةً عَلَى صَنَائِدِيقِ الْكَنْزِ فِي
السَّرْدَابِ لِتَحْرُسَهُ.

فَيَا لِلْبَخِيلِ مِنْ حَارِسِ لِلْمَالِ أَمِينِ!

الغِرَارَةُ الْمَعْرُورَةُ

كَانَتْ غِرَارَةً^١ مُنْبَسِطَةً عِنْدَ مَدْخَلِ الدَّارِ لِيَمْسَحَ فِيهَا الخَدَمُ أَرْجُلَهُمْ كُلَّمَا دَخَلُوا، وَذَاتَ يَوْمٍ خَطَرَ لِصَاحِبِ الدَّارِ أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا لِشَأْنٍ آخَرَ قَدْ تَصَلَّحَ لَهُ، وَرَأَى أَنْ يَخْتَرِنَ فِيهَا كَنْزَهُ فَمَلَأَهَا نُقُودًا؛ وَبِطَبِيعَةِ الحَالِ كَانَ يَخْشَى عَلَى مَا فِيهَا مِنَ الضَّيَاعِ، فَوَضَعَهَا فِي أَحْرَزِ مَكَانٍ مِنَ الدَّارِ، وَتَعَهَّدَهَا بِعِنَايَتِهِ الخَاصَّةِ خَوْفًا مِنْ أَنْ تَعْبَثَ بِهَا يَدُ خَادِمٍ خَائِنٍ، أَوْ لِيَصَّ غَدَارٍ، فَأَغْلَقَ عَلَيْهَا النُّوَافِذَ وَالْأَبْوَابَ، وَلَمْ يَسْمَحْ لِأَحَدٍ بِالِاقْتِرَابِ مِنْهَا إِلَّا بِكُلِّ حُشُوعٍ وَوَقَارٍ، حَتَّى أَكْرَمَ الزُّوَارِ لَمْ يَجْرُؤْ عَلَى مَسِّهَا.

فَلَهَجَتِ البُلْدَةُ بِالحَدِيثِ عَنْهَا وَعَنْ مُحتَوِيَاتِهَا الثَّمِينَةِ، فَدَاحَلَهَا العُجْبُ وَالغُرُورُ وَالِإِعْتِدَادُ بِالنَّفْسِ، وَأَدَّى بِهَا ذَلِكَ إِلَى إِبْدَاءِ آرَائِهَا، وَإِصْدَارِ أَحْكَامِهَا عَلَى مَنْ حَوْلَهَا، كَأَنَّ تَقُولَ عَنْ فُلَانٍ: إِنَّهُ مَاهِرٌ بَارِعٌ، وَإِنَّ فُلَانَةَ غَرَّةٌ بِلَهَاءٍ، وَهَذَا العَالِمُ الشَّهِيرُ حِمَارٌ جَاهِلٌ لَا يَعْرِفُ كُوعَهُ مِنْ بُوْعِهِ، وَذَلِكَ الَّذِي تَطْنُونَهُ تَرِيًّا كَبِيرًا لَيْسَ إِلَّا رَجُلًا فَقِيرًا لَا يَمْلِكُ شَرَوْى بَقِيرٍ.

وَبِحُكْمِ مَا كَانَ فِي الغِرَارَةِ مِنَ المَالِ الوَفِيرِ كَانَتْ تُطَاطَى رُؤُوسَ السَّامِعِينَ مُؤْمِنَةً عَلَى مَا تَقُولُهُ مِنْ سَفَاسِفِ الأَقْوَالِ، وَتُبْدِيهِ مِنْ سَخَائِفِ الآرَاءِ. وَأخِيرًا لَمَّا فَرَعَّ مَا كَانَ فِيهَا مِنَ الذَّهَبِ الخَدَّاعِ، طَرَحَهَا صَاحِبُ الدَّارِ حَيْثُمَا كَانَتْ لِتَنْظِيفِ الأَحْدِيَةِ وَمَسْحِ البِلَاطِ.

^١ الغرارة: هي الركببة وكتاتهما من فصيح اللغة.

الفلاحان وحظُّهما

سُئِلَ أَعْرَابِيٌّ: لِمَاذَا لَا تَشْرَبُ الْخَمْرَ؟
فَأَجَابَ: لَا أَشْرَبُ مَا يَشْرَبُ عَقْلِي!

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا صَدِيقِي إِبْرَاهِيمُ!
وَعَلَيْكَ السَّلَامُ يَا عَزِيزِي صَادِقُ! خَبَّرَنِي كَيْفَ أَنْتَ؟ وَكَيْفَ حَالُكَ الْآنَ؟ لِأَنِّي لَمْ
أَقَابِلَكَ مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ.

أَه، يَا أَخِي إِبْرَاهِيمُ! لَيْتَنِي لَمْ أَقَابِلَكَ حَتَّى لَا أُزْعَجَكَ بِسَمَاعِ أَخْبَارِي الَّتِي لَا تَسُرُّ
إِلَّا الْأَعْدَاءَ، فَقَدْ حَرَقْتُ دَارِي غَيْرَ مُتَعَمِّدٍ، وَاحْتَرَقَ بِحَرِيقِهِ كُلُّ مَا كُنْتُ أَمْلِكُ مِنْ حُطَامِ
الدُّنْيَا، فَأَصْبَحْتُ خَالِي الْوِفَاضِ،^١ أَعَانِي الْمُرْتَبَةُ^٢ كَمَا تَرَى، وَلَا يُمْسِكُ رُوحِي بِجَسَدِي إِلَّا
مَا يَجُودُ بِهِ عَلَيَّ أَهْلُ الْخَيْرِ.

وَكَيْفَ حَدَثَ ذَلِكَ أَيُّهَا الصَّاحِبُ الْعَزِيزُ؟

حَدَثَ فِي لَيْلَةِ عِيدِ الْمِيلَادِ الْمَجِيدِ؛ إِذْ ضَيَّفْنَا بَعْضَ الْأَصْحَابِ لِنُحْيِي مَعَهُمْ سَهْرَةَ
هَذَا الْعِيدِ بِأَحْسَنَاءِ بَضْعِ كُتُوسٍ مِنَ الْخَمْرِ كَالْعَادَةِ الْمُتَّبَعَةِ عِنْدَ بَعْضِ النَّاسِ فِي مِثْلِ
هَذِهِ الْمُنَاسَبَاتِ، وَلَمَّا انْتَشَيْتُ مِنَ الشَّرَابِ، تَذَكَّرْتُ حِصَانِي الْمَحْبُوبَ، فَأَشْعَلْتُ شَمْعَةً
لَأَسْتَنِيرَ بِهَا فِي نَهَابِي إِلَيْهِ بِقَلِيلٍ مِنْ طَعَامِ الْعِيدِ؛ كَيْ يُشَارِكَنَا فِي فَرَحِنَا وَمَرَحِنَا؛ وَلَوْ

^١ الوفاض: جمع وفضة، وهي وعاء كالجعبة من الجلد.

^٢ الفاقة والفقر.

أَرَدْتُ الْحَقَّ لَقَلْتُ: إِنِّي لَمْ أَكُنْ أَدْرِي تَمَامًا مَا الَّذِي خَرَجْتُ لِأَفْعَلُهُ، وَلِسَبَبٍ مَا، سَقَطَتْ
الشَّمْعَةُ مِنْ يَدَيَّ فَأَشْعَلَتِ الْبَيْتَ وَمُلْحَقَاتِهِ، وَأَتَتِ النَّيْرَانُ عَلَى كُلِّ مَا كَانَ لِي فِيهِ.
هَذِهِ قِصَّتِي ذَكَرْتَهَا لَكَ بِنَصِّهَا وَفَصَّهَا، فَحَبَّرَنِي بِدَوْرِكَ عَنْ نَفْسِكَ: لِأَنِّي أَشْعُرُ مِمَّا
أَرَى أَنَّكَ لَسْتَ أَحْسَنَ حَالًا مِنِّي.

فَأَجَابَهُ إِبْرَاهِيمُ — وَالْحُزْنَ بَادٍ عَلَى نَبْرَاتِ صَوْتِهِ: لَقَدْ صَدَقْتَ فِيمَا قُلْتَ يَا صَدِيقِي،
فَأَنْتَ أَحْسَنُ حَالًا مِنِّي بِمَا لَا يُقَاسُ؛ لِأَنَّكَ تَرَى أَمَامَكَ كَسِيحًا عَاجِزًا عَنْ كُلِّ عَمَلٍ سِوَى
النَّدَمِ وَالْحَسْرَةِ، وَالتَّعَجُّبِ مِنْ بَقَاءِ رُوحِهِ فِي جَسَدِهِ إِلَى الْآنَ.

فَفِي سَهْرَةِ عِيدٍ، لَمْ يَكُنْ سَعِيدًا، شَرِبْتُ مَعَ الْأَصْحَابِ نَبِيذًا مُعْتَقًا حَتَّى انْتَشَيْتُ
مِنْهُ، وَخَطَرَ لِي أَنْ أَنْزَلَ إِلَى مَخْرَنِ الْمُؤُونَةِ لِأُخْضِرَ بِرَمِيلاً صَغِيرًا مِنَ الْبِيرَةِ،^٣ وَلِكَيْ أَطْمَئِنَّ
عَلَى الْبَيْتِ مِنَ الْحَرِيقِ، أَطْفَأْتُ الشَّمْعَةَ الَّتِي كُنْتُ أَسْتَنِيرُ بِهَا، وَفِي حُلُكَةِ الظَّلَامِ شَعَرْتُ
بِيَدِ الشَّيْطَانِ اللَّعِينِ تَدْفَعُنِي، وَكَانَتِ الْحَمْرَةُ الَّتِي شَرِبْتُهَا مَعَ النَّبِيذِ قَدْ لَعَبَتْ بِرَأْسِي،
وَفَكَّكَتْ أَوْصَالِي؛ فَلَمْ أَقْوِ عَلَى التَّبَاتِ، وَسَقَطْتُ، فَتَدَحَّرَجْتُ عَلَى الدَّرَجِ مِنْ فَوْقِ إِلَى تَحْتِ،
وَكَانَ قَدْ أُغْمِيَ عَلَيَّ مِنْ شِدَّةِ الْأَلَمِ، وَلَمَّا أَفْقَتُ مِنْ صَدْمَةِ السَّقْطَةِ وَجَدْتُنِي كَمَا تَرَانِي لَا
أَسْتَطِيعُ الْمَشْيَ إِلَّا مُتَوَكِّئًا عَلَى عُكَّازَتِي إِلَى آخِرِ نَسَمَةٍ مِنْ حَيَاتِي.

وَسَمِعَ الْجَارُ حَدِيثَهُمَا؛ فَخَاطَبَهُمَا بِجَفْوَةٍ، قَائِلًا: «لَا تَلُومَا إِلَّا نَفْسَيْكُمَا عَلَى مَا جَرَى
لَكُمَا يَا صَاحِبَيَّ، فَالشَّمْعَةُ فِي يَدِ السُّكْرَانِ مَجْلِبَةٌ لِلْأَذَى إِنْ كَانَتْ وَالْعِةُ أَوْ مُطْفِئَةٌ.»

^٣ كلمة معربة؛ ولستُ على رأي مُحَبِّذِي استعمال كلمة «جعة».

^٤ الوصل هو كل عضو على حدة، والجمع أوصال.

الْكَلْبُ وَالْحِصَانُ

بَعْدَ أَنْ خَدَمَ الْكَلْبُ وَالْحِصَانُ صَاحِبَهُمَا سِنِينَ عَدِيدَةً، جَلَسَا يَتَنَاقَشَانِ فِي قِيَمَةِ خِدْمَةِ كُلِّ مِنْهُمَا، وَفَجَاءَهُ صَاحِبُ الْكَلْبِ فِي الْحِصَانِ قَائِلًا: «لَوْ كَانَ لِي أَنْ أَتَصَرَّفَ كَمَا أَرَى وَأَشَاءُ، لَكُنْتُ طَرَدْتُكَ مِنْ هَذِهِ الْمَزْرَعَةِ مِنْ زَمَنِ بَعِيدٍ؛ لِأَنَّه: مَا قِيَمَةُ جَرِّ الْمِحْرَاثِ أَوْ الْعَرَبَةِ؟ وَلَيْسَ لَكَ غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ عَمَلٍ تَفْخَرُ بِأَدَائِهِ وَتَسْتَحِقُّ عَلَيْهِ مَا تَنَالُهُ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ، بَيْنَمَا تَرَانِي دَائِمَ الْحَرَكَةِ فِي رُعْيِ الْمَاشِيَةِ نَهَارًا، وَجِرَاسَةِ حِظَائِرِهَا، وَمَسَاكِنِ الْمَزْرَعَةِ لَيْلًا و...»

فَقَاطَعَهُ الْحِصَانُ قَائِلًا: «هُونْ عَلَيْكَ يَا صَاحِبِ! وَكَفَى بَعْضُ مَا ذَكَرْتَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ لِنَسْوِيغِ مَا تَأْخُذُهُ أَنْتَ أَيْضًا مِنْ أَكْلِ وَشُرْبِ، فَلَسْتُ مِمَّنْ يَغْمِطُونَ النَّاسَ حُقُوقَهُمْ، وَلَكِنِّي أَوَدُّ أَنْ أُوجَّهَ نَظْرَكَ إِلَى أَنَّنِي لَوْ لَمْ أَشْتِغَلْ بِجَرِّ الْمِحْرَاثِ لِحَرْثِ الْأَرْضِ وَزَرْعِهَا، لَمَا وَجَدْتَ أَنْتَ مَا تُتَعَبُكَ رِعَايَتُهُ مِنَ الْمَاشِيَةِ، وَلَا مَا يَشْغَلُكَ جِرَاسَتُهُ مِنَ الْحِظَائِرِ وَالْمَسَاكِينِ.»

الْقِرْدُ يَطْلُبُ الثَّنَاءَ

اشْتَهَرَ عَبْدُ الْخَالِقِ الْفَلَّاحُ بَيْنَ جِيرَانِهِ وَأَهْلِ ضَيْعَتِهِ بِالْأَمَانَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ فِي سُلُوكِهِ، وَالْجِدِّ وَالْإِحْتِهَادِ فِي عَمَلِهِ.

وَقَامَ يَوْمًا كَعَادَتِهِ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ يَحْرُثُ حَقْلَهُ بِنَشَاطِهِ الْمَعْهُودِ حَتَّى تَصَبَّبَ الْعَرَقُ مِنْ جَبِينِهِ.

وَكَانَ كَلَّمَا مَرَّ بِهِ أَحَدٌ مَعَارِفِهِ، حَيَّاهُ أَحْسَنَ تَحِيَّةٍ، وَأَعَدَّقَ عَلَيْهِ أَطْيَبَ ثَنَاءٍ، كَأَنَّ يَقُولُ لَهُ: «أَسْعَدَ اللَّهُ كُلَّ أَوْقَاتِكَ، وَبَارَكَ اللَّهُ فِيكَ وَفِي زَرْعِكَ، أَيُّهَا الرَّفِيقُ الْعَزِيزُ!» فَسَمِعَ الْقِرْدُ تِلْكَ الْعِبَارَاتِ الْحُلُوةَ، وَوَدَّ لَوْ نَالَهُ شَيْءٌ مِنْهَا، وَفَكَرَّ فِي عَمَلٍ يَعْمَلُهُ؛ يُثِيرُ بِهِ اهْتِمَامَ النَّاسِ، وَإِعْجَابَهُمْ وَيَسْتَدِرُّ مَدِيحَهُمْ وَثَنَاءَهُمْ.

وَإِذْ عَنَرَ عَلَى جَذَلٍ^١ دَفَعَهُ أَمَامَهُ، وَأَخَذَ يُدْحِرْجُهُ إِقْبَالًا وَإِدْبَارًا، حَتَّى سَالَ الْعَرَقُ مِنْ جَبِينِهِ وَكُلِّ جِسْمِهِ، وَلَكِنْ عَبَثًا كَانَ ذَلِكَ؛ إِذْ لَمْ يَعْرِهُ وَاحِدٌ مِنْ كُلِّ الَّذِينَ مَرُّوا بِهِ أَقَلَّ اهْتِمَامٍ، وَلَا وَجَهٍ إِلَيْهِ كَلِمَةً مَدْحٍ أَوْ ثَنَاءٍ أَوْ إِعْجَابٍ.

وَلَمَّا أَعْيَيْتَهُ الْحَيْلُ، سَأَلَ أَحَدَ الْمَارَّةِ عَنْ سَبَبِ عَدَمِ اهْتِمَامِ النَّاسِ بِهِ، فَأَجَابَهُ قَائِلًا: لَا تَعْجَبْ لِذَلِكَ يَا صَاحِبِ؛ لِأَنَّ كُلَّ عَمَلِكَ لَيْسَ إِلَّا جَعَجَعَةً بِلا طَحْنٍ،^٢ فَلَسْتَ تَقْصُدُ بِهِ سِوَى تَوْجِيهِ أَنْظَارِ النَّاسِ إِلَيْكَ لِلْإِعْجَابِ بِكَ، فَهَلَّا سَمِعْتَ: «إِنَّ ثَمْرَةَ الْعُجْبِ الْمَقْتُ».

^١ الجذل: أصل الشجرة بعد زهاب الفرع.

^٢ الطحن: الدقيق.

الثَلَاثَةُ الْأَصْحَابُ

تَعَبَ الثَّلَاثَةُ الْأَصْحَابَ حَتَّى عَثَرُوا عَلَى نَزْلِ^١ رَيْفِيٍّ صَغِيرٍ يَقْضُونَ فِيهِ لَيْلَتَهُمْ وَهُمْ فِي طَرِيقِ عَوْدَتِهِمْ مِنَ الْعَاصِمَةِ.

وَطَلَبُوا مِنْ صَاحِبِهِ غُرْفَةً يَنَامُونَ فِيهَا، وَطَعَامًا يَسُدُّونَ بِهِ أَرْمَاقَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا جِيَاعًا لِنَفَادِ زَادِهِمْ، فَأَعْطَاهُمْ غُرْفَةً فِيهَا ثَلَاثَةُ أَسْرَةٍ مُرِيحَةٍ تَرَكَوا فِيهَا أَمْتِعَتَهُمْ، وَنَزَلُوا إِلَى قَاعَةِ الْأَكْلِ.

فَقَالَ أَحَدُهُمْ: «أَهْ لَوْ نَجِدُ مَا نَتَبَلَّغُ بِهِ؛ حَتَّى نَقْدِرَ أَنْ نَنَامَ.»

وَأَقْبَلَ صَاحِبُ الْخَانِ وَوَضَعَ أَمَامَهُمْ صِحَافًا نَظِيفَةً، وَمَلَاعِقَ وَشَوِكًَا وَسَكَكِينَ صَقِيلَةً بَرَّاقَةً، وَسُلْطَانِيَّةً فِيهَا مِنْ صُبَّةِ^٢ الْكُرْنَبِ مَا لَا يَكْفِي وَاحِدًا مِنْهُمْ، وَكَذَلِكَ صَحْفَةٌ صَغِيرَةٌ فِيهَا الْقَلِيلُ مِنَ الثَّرِيدِ،^٣ وَثَلَاثَ قِطْعٍ مِنَ الْخُبْزِ مُسْتَدِيرَةٍ كَالرِّيَالِ، وَقَالَ لَهُمْ: «يُؤَسِّفُنِي أَيُّهَا السَّادَةُ أَلَّا أَجِدَ الْآنَ مَا أُقَدِّمُهُ لَكُمْ غَيْرَ هَذَا الَّذِي تَرَوْنَهُ أَمَامَكُمْ، فَهُوَ كُلُّ مَا بَقِيَ فِي مَطْبَخِي»، قَالَ ذَلِكَ وَذَهَبَ لِيَنَامَ.

وَنَظَرَ ثَلَاثَتُهُمْ إِلَى مَا عَلَى الْمَائِدَةِ وَإِلَى بَعْضِهِمُ الْبَعْضَ، وَقَالَ أَحَدُهُمْ: إِنَّهُ شَيْءٌ خَيْرٌ مِنْ لَا شَيْءٍ.

^١ نزل عربية، أما خان أو فندق فإنهما دخيلتان.

^٢ وهي الشورية باللغة الدارجة.

^٣ الثريد: الخبز يُفْتُ ثم يُبَلُّ بالمرق.

وَفَكَّرَ أَوْسَعُهُمْ حِيلَةً فِي وَسِيلَةِ شَيْطَانِيَّةٍ تُنِيلُهُ كِفَايَتَهُ مِنَ الطَّعَامِ، فَقَالَ: «أَلَمْ يَبْلُغْكُمْ
أَنَّ صَدِيقَنَا إِبْرَاهِيمَ سَيَجْنُدُ فِي هَدْيِنِ الْيَوْمَيْنِ؟»
وَقَالَ الصَّدِيقَانِ بِصَوْتٍ وَاحِدٍ يَدُلُّ عَلَى الدَّهْشَةِ: «وَلَمْ ذَلِكَ؟»
فَقَالَ تَالِثُهُمْ، وَكَانَ أَدْهَاهُمْ: «لَأَنَّنَا سَنُعَلِنُ الْحَرْبَ عَلَى الصِّينِ؛ لِأَنَّ إِمْبْرَاطُورَهَا قَدْ
فَرَضَ ضَرْبِيَّةً عَلَى الشَّايِ الَّذِي تُصَدِّرُهُ بِلَادُهُ إِلَيْنَا.»
قَالَ ذَلِكَ وَتَرَكَ صَاحِبِيهِ يَتَجَادَلَانِ بِكُلِّ حِدَّةٍ وَحَمَاسٍ، وَيَتَنَاقَشَانِ وَيَبْأَدِلَانِ الْأَرْاءَ فِي
رَسْمِ خُطَّةِ الْحَرْبِ، وَتَوَازِعِ الْجُيُوشِ، وَتَعْيِينِ الْقُوَّادِ، حَتَّى يَخْلُوْا لَهُ جَوْ الْمَائِدَةِ؛ لِيَلْتَهُمْ
كُلُّ مَا عَلَيْهَا قَبْلَ أَنْ يَتَّفِقَا عَلَى قَرَارٍ نَهَائِيٍّ يَضْمَنُ لِدَوْلَيْهِمَا النَّصْرَ عَلَى الْإِمْبْرَاطُورِيَّةِ
الصِّينِيَّةِ، وَالْحُصُولَ عَلَى شَائِبِهَا بِأَرْخَصِ الْأَسْعَارِ.

٤ الدهاء: جودة الرأي والمكر والاحتيايل، ورجل داهٍ أي جيد الرأي، وداهية (بالتاء المربوطة) للمبالغة.

الْحَجَرُ يَغَارُ مِنَ الْمَطْرِ

وَصَاحَ الْحَجَرُ قَائِلًا: مَا كُلُّ هَذِهِ الصَّبَّةِ الَّتِي يُثِيرُونَهَا حَوْلَ زِيَارَةِ قَصِيرَةِ لِمُزْنَةِ^١ سُودَاءِ عَابِرَةٍ، صَحِبَتْهَا دَفْقَةٌ^٢ مِنَ الْمَطْرِ الْغَزِيرِ لَمْ تَدُمْ سِوَى سَاعَاتٍ مَعْدُودَاتٍ، يُعْدُونَهَا^٣ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ وَالْبَرَكَاتِ الَّتِي تُغْدِقُهَا^٤ الطَّبِيعَةُ عَلَى الْأَرْضِ.

أَمَا أَنَا فَقَدْ مَضَتْ عَلَيَّ أَجْيَالٌ وَقُرُونٌ لَا عَدَّ وَلَا حَصْرَ لَهَا، وَأَنَا رَاقِدٌ هُنَا، وَادِعًا مُسْتَكِينًا، دُونَ أَنْ أَحْطَى فِي كُلِّ حَيَاتِي الطَّوِيلَةِ بِرُؤْيَا^٥ مَنْ يَهْتَمُّ بِتَوْجِيهِ كَلِمَةٍ شُكْرٍ أَوْ عِبَارَةٍ ثَنَاءً.

حَقًّا إِنَّ هَذَا لَظَلْمٌ فَادِحٌ!

وَإِذْ سَمِعْتَهُ الدُّودَةَ الْحَكِيمَةَ، صَاحَتْ فِيهِ قَائِلَةً: صُنْ لِسَانَكَ عَنِ هَذَا الْهَرَاءِ،^٥ يَا صَاحِ، وَلَا تَتَدَمَّرْ، وَاعْلَمْ أَنَّ دَفْقَةَ الْمَطْرِ الَّتِي صَحِبَتْ زِيَارَةَ الْمُزْنَةِ السُّودَاءِ الْقَصِيرَةِ الْأَمِّدِ، قَدْ أَحْيَتْ مَا كَانَ مُشْرِفًا عَلَى الْهَلَاكِ عَطَشًا؛ مِنَ النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانَ، هَذَا مَا فَعَلَتْهُ الْمُزْنَةُ السُّودَاءُ فَجَعَلَتْ النَّاسَ يَضْجُونَ بِالْهُتَافِ لَهَا.

^١ سحابة ذات مطر.

^٢ الدَّفْقَةُ: الدفعة الواحدة.

^٣ يحسبونها.

^٤ أغدق: أي أعطى بغزارة وسخاء.

^٥ الكلام الكثير الفاسد الذي لا نظام له.

أحاديث روسية

وَالآنَ خَبَّرَنِي بِرَبِّكَ عَمَّا أَسَدَيْتَهُ أَنْتَ إِلَى هَوْلَاءِ النَّاسِ فِي أَثْنَاءِ كُلِّ هَذِهِ الْعُصُورِ
وَالْأَجْيَالِ الَّتِي قَضَيْتَهَا عِنْدَهُمْ، حَتَّى تَنْتَظِرَ مِنْهُمْ أَنْ يُلْهَجُوا بِحَمْدِكَ؟
وَيَقُ أَنْ وُجُودَكَ هُنَا سِوَاءَ لَدَيْهِمْ وَالْعَدَمِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

وَكُلُّ مَنْ لَا خَيْرَ مِنْهُ يُرْتَجَى إِنْ جَاءَ^٦ أَوْ رَاحَ عَلَى حَدِّ سِوَا

^٦ أصله: إن عاش أو مات.

الغراب القدير^١

حَدَّثَ ذَلِكَ فِي عَامِ ١٨١٢ عِنْدَمَا اقْتَرَبَ جَيْشُ «نَابَلْيُون» مِنْ «مُوسْكُو» عَاصِمَةِ «رُوسِيَا» الْقَدِيمَةِ؛ حَيْثُ نَصَبَ الْقَائِدُ الرُّوسِيُّ شَرَكًا لِنَابَلْيُونِ وَجَيْشِهِ؛ جَاعِلًا طُعْمَهُ مَدِينَةَ «مُوسْكُو» الْعَظِيمَةَ، وَذَلِكَ أَنْ أَمَرَ بِإِخْلَاطِهَا مِنْ كُلِّ مَا كَانَ فِيهَا مِنْ إِنْسَانٍ وَطَيْرٍ وَحَيَوَانٍ، وَكُلِّ مَا يُمَكِّنُ حَمْلَهُ مِنْ طَعَامٍ وَلِبَاسٍ وَفِرَاشٍ، ثُمَّ إِحْرَاقِهَا بِكُلِّ مَا يَبْقَى فِيهَا قَبْلَ وُصُولِ الْعَدُوِّ إِلَيْهَا بِوَقْتِ قَصِيرٍ، حَتَّى لَا يَجِدَ هُنَاكَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَنْتَفِعَ بِهِ لِذَفْعِ غَائِلَةِ شِتَاءِ «رُوسِيَا» الْقَارِسِ.

وَهَكَذَا هَجَرَهَا أَهْلُهَا مِنَ الْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ، وَالْعَظِيمِ وَالْحَقِيرِ، وَخَرَجُوا مِنْهَا أَفْوَاجًا أَفْوَاجًا كَثُورًا^٢ نَحَلَ يَهْجُرُ خَلِيَّتَهُ.

وَفِي إِبَانِ هَذِهِ الْهَجْرَةِ، وَقَفَ غَرَابٌ عَلَى سَقْفِ بَيْتٍ، يَرْقُبُ هَذِهِ الْحَرَكَةَ الْهَائِلَةَ، وَرَأَتْهُ دَجَاجَةً كَانَتْ فِي مَرْكَبَةٍ تَسِيرُ مُسْرِعَةً فِي طَرِيقِ خُرُوجِهَا مِنَ الْمَدِينَةِ، فَنَادَتْهُ قَائِلَةً: «مَا بَالُكَ أَيُّهَا الرَّفِيقُ تَجْلِسُ مُطْمَئِنًّا كَأَنَّكَ لَا تَتَوَيُّ الْهَجْرَةَ مَعَنَا امْتِنَانًا لِأَمْرِ قَائِدِنَا الْعَظِيمِ؟! أَلَا تَعْلَمُ أَنَّ الْعَدُوَّ قَدْ دَنَا مِنْ أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ؟»

^١ أو القادر: هو ما يُقْتَدَرُ؛ أي يطبخ في القدر.

^٢ الثُّور: جماعة النحل.

وَقَالَ الْغُرَابُ: «وَلِمَ أَرْحَلُ وَأَنَا لَسْتُ مَطْمَعَةً^٣ لِأَحَدٍ؟ لِأَنَّ لَحْمِي لَا يَنْفَعُ لِلْأَكْلِ مَشُوبًا
أَوْ مَسْلُوقًا مِثْلَ لَحْمِكَ.»

وَبَقِيَ الْغُرَابُ إِلَى أَنْ دَخَلَ جَيْشُ الْعَدُوِّ فِي الشَّرِكِ الْمَنْصُوبِ، وَلَمَّا اشْتَدَّتْ بِالْجَيْشِ
الْمَجَاعَةُ، وَلَمْ يَجِدْ مَا يَأْكُلُهُ سِوَى الْفُتْرَانِ وَالْغُرْبَانِ، كَانَ مَصِيرُهُ الْاِقْتِدَارُ^٤ لِسَدِّ جُوعِ
الْجَيْشِ الْفَرَنْسِيِّ.

^٣ ما يُحْرَكُ الطمع.

^٤ الطبخ في قَدْرِ.

الفلاحُ الحمارُ

استأجرَ فلاحٌ سادجُ حمارًا نشيطًا، وكلفه جِرَاسَةَ الحَدِيقَةِ وِحْمَايَتِهَا مِنَ الطُّيُورِ
كَالعَصَافِيرِ وَالغُرَبَانِ؛ الَّتِي كَانَتْ تَتَرَدَّدُ عَلَيْهَا لِالْتِقَاطِ مَا تَعْتَرُّ عَلَيْهِ مِنَ البُدُورِ أَوِ التَّمَارِ.
وَقَامَ الحِمَارُ بِوَاجِبِهِ بِكُلِّ أَمَانَةٍ وَإِخْلَاصٍ فِي إِبْعَادِ الطُّيُورِ، وَلَمْ يَسْمَحْ لِفَمِهِ أَنْ يَمْتَدَّ
إِلَى مَا كَانَ فِي الحَدِيقَةِ مِنَ النِّبَاتَاتِ النَّاصِرَةِ الَّتِي جَرَى لِعَابُهُ عِنْدَ رُؤُوسِهَا، وَطَبَعًا لَمْ يَكُنْ
فِي وَسْعِ الحِمَارِ أَنْ يُؤَدِّيَ عَمَلَهُ وَهُوَ وَاقِفٌ لَا يَبْدِي حَرَكَاتًا، وَلَا يَرْفَعُ نَظْرَهُ إِلَى مَا فَوْقَهُ،
بَلْ كَانَ وَاجِبُهُ يَضْطَرُّهُ إِلَى الجَرِيِّ وَالوُثُوبِ مِنْ نَاحِيَةِ إِلَى نَاحِيَةٍ؛ لِيَطْرُدَ مَا يَلُوحُ لَهُ أَنَّهُ
سَيَهْبِطُ عَلَى الحَدِيقَةِ مِنَ الطُّيُورِ الصَّغِيرَةِ أَوِ الكَبِيرَةِ، غَيْرَ مُكْتَرِثٍ لِمَا تُخْرِبُهُ أَرْجُلُهُ مِنْ
أَحْوَاضِ الأزْهَارِ الجَمِيلَةِ، الَّتِي تَعْبُ البُسْتَانِيَّ فِي زَرْعِهَا وَتَنْسِيقِهَا وَالْعِنَايَةِ بِهَا!
وَمَرَّ صَاحِبُ الحَدِيقَةِ، وَوَقَعَ نَظْرُهُ عَلَى مَا أَصَابَ حَدِيقَتَهُ مِنَ الخَرَابِ وَالتَّلَفِ، فَطَارَ
طَائِرُهُ^١ وَأَسْرَعَ إِلَى حِمَارِهِ، وَفِي يَدِهِ هِرَاوَةٌ^٢ وَظَلَّ يَهْرِيهِ^٣ (يَضْرِبُهُ بِالْهِرَاوَةِ)؛^٤ عِقَابًا لَهُ
عَلَى مَا ارْتَكَبَهُ مِنْ تَخْرِيْبٍ وَإِتْلَافٍ.

١ استشاط غضبًا.

٢ عصا غليظة.

٣ يضربه بالهراوة.

٤ يضربه.

أحاديث روسية

وَلَكِنْ قُلْ لِي بِرَبِّكَ! عَلَى مَنْ يَقَعُ اللَّوْمُ فِي هَذَا الْأَمْرِ؟ أَعَلَى الْجِمَارِ الَّذِي قَامَ بِمَا طُلِبَ مِنْهُ
الْقِيَامُ بِهِ خَيْرَ قِيَامٍ، وَبِكُلِّ نَشَاطٍ وَهَمَّةٍ وَإِخْلَاصٍ؟ أَمْ عَلَى الْفَلَّاحِ الَّذِي أَسَاءَ الْإِخْتِيَارَ؟
وَأَيُّهُمَا كَانَ أَجْدَرَ بِالْعِقَابِ؟

أَبُو خَالِدِ السَّخِيِّ

وَرَقَدَ أَبُو خَالِدٍ^١ عِنْدَ كُدَاسٍ قَتَّ^٢ يَنْعَمُ بِمَا مَلَأَ بِهِ بَطْنَهُ، وَمَا ادَّخَرَهُ لِغَدِهِ، وَبَعَدَ غَدِهِ،
مِنْ دَجَاجِ صَاحِبِ الضَّيْعَةِ.
وَمَرَّ بِهِ أَبُو كَاسِبٍ^٣ وَكَانَ جَائِعًا تَبْدُو أَمَارَاتُ السَّغَابِ؛ عَلَى بَدَنِهِ، وَفِي حَرَكَاتِهِ،
وَمِنْ نَظَرَاتِهِ، جَلِيَّةً وَاضِحَةً، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَنْطَرِّقَ إِلَى النَّاطِرِ إِلَيْهَا أَدْنَى شَكٍّ فِي حَقِيقَتِهَا.
وَأَدَارَ الذُّنْبُ حَظْمَهُ نَحْوَ التُّعْلَبِ، وَطَفِقَ يَعْوِي قَائِلًا: «أَرَانِي مُشْرِفًا عَلَى الْمَوْتِ
جُوعًا يَا ابْنَ الْعَمِّ الْعَزِيزِ؛ لِأَنِّي لَمْ أُوفِّقْ فِي كُلِّ يَوْمِي إِلَى مَا أُمْسِكُ بِهِ رَمَقِي، فَكِلَابُ هَذِهِ
الْبِلَادِ فِي غَايَةِ الشَّرَاسَةِ، وَرِعَاتُهَا فِي مُنْتَهَى الْيَقِظَةِ.»

^١ كنية الثعلب.

^٢ القت: الفصفصة المجففة، وتُعرف في مصر بالدريس، وهو البرسيم المجفف.

^٣ كنية الذئب.

^٤ الجوع الشديد.

وَرَنَا إِلَيْهِ^٥ التُّعَلُّبُ؛ وَبَعْدَ أَنْ تَتَأَبَّ وَتَمَطَّ^٦ فِي كَلَامِهِ، هَزَّ رَأْسَهُ أَسْفًا وَحَسْرَةً، ثُمَّ قَالَ: «إِذَا سِتُّتَ فَتَفْضَلْ وَخُذْ مِنْ هَذَا الْقَتِّ قَدْرَ مَا تُحِبُّ وَتَسْتَهِي، فَكُلُّهُ لَكَ إِذَا أَرَدْتَ، وَثِقْ بِأَنِّي لَنْ أُزَاحِمَكَ عَلَيْهِ، مَا دُمْتَ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ، أَيُّهَا الْحَبِيبُ الْغَالِي.»

وَشَرَّه^٧ الذُّنْبُ، ثُمَّ آذَرَ لَهُ ظَهْرَهُ وَمَضَى فِي سَبِيلِهِ بَعْدَمَا شَغَرَ^٨ عَلَى قَتِّهِ.

^٥ أدام النظرة إليه بسكون الطرف.

^٦ مَدَّهُ وَلَوَّ فِيهِ.

^٧ نظر إليه بجانب العين مع إعراض وغضب.

^٨ رفع إحدى رجليه فبال.

الطَّحَّانُ الْغَيْبِيُّ

سَرَبَ^١ الْمَاءِ مِنْ ثُقْبَةٍ^٢ فِي جِدَارِ حَزَانِ الْمِيَاهِ الَّتِي تُدِيرُ الطَّاحُونَ، وَوَجَّهَ الْجِيرَانَ نَظَرَ
الطَّحَّانِ كَيْ يَتَلَفَى الْأَمْرَ قَبْلَ أَنْ يَتَّسِعَ الْخَرْقُ عَلَى الرَّاتِقِ^٣، وَلَكِنَّهُ، لِعِبَاوَتِهِ، لَمْ يَعْأُ بِمِثْلِ
هَذَا الْوَكْفَانِ^٤ الطَّفِيفِ، وَهَرَّ كَتَفَهُ اسْتِخْفَافًا.

وَلَكِنَّ الْأَمْرَ لَمْ يَقِفْ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ الطَّفِيفِ، بَلِ ازْدَادَ تَسْرُبُ الْمِيَاهِ مِنَ الثَّقْبِ الَّذِي
اتَّسَعَ بِطَبِيعَةِ ضَعْفِ الْمِيَاهِ، وَصَاحَ الْجِيرَانُ بِالطَّحَّانِ يَسْتَحِينُونَهُ عَلَى وُجُوبِ الْإِسْرَاعِ فِي
سَدِّ الثُّغْرَةِ، فَأَجَابَهُمْ وَهُوَ يَتَنَاءَبُ، دُونَ اهْتِمَامٍ أَوْ اكْتِرَاطٍ: «مَا عَلَيْكُمْ مِنْ ذَلِكَ! فَأَنَا لَسْتُ
بِحَاجَةٍ إِلَى خِضْمٍ^٥ لِسَيْرِ عَمَلِي؛ لِأَنَّ الْمَاءَ الْمَوْجُودَ فِي هَذَا الْحَوْزِ^٦ يَكْفِي لِإِدَارَةِ طَاحُونِي
مَدَى حَيَاتِي، وَحَيَاةِ أَوْلَادِي، وَأَوْلَادِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ.»

وَاسْتَنَامَ^٧ الطَّحَّانُ إِلَى هَذَا الْإِعْتِقَادِ، بَيْنَمَا ازْدَادَ الْخَرْقُ اتِّسَاعًا، وَازْدَادَ الْمَاءُ أَنْهَامًا
حَتَّى نَضَبَ (نَشَفَ) كُلُّ مَا كَانَ فِي الْحَوْزِ.

^١ سال.

^٢ ثَقْبٌ صَغِيرٌ.

^٣ زاد الفساد حتى فات التلافي.

^٤ وكف: أي سال.

^٥ بحر عظيم.

^٦ الموضوع إذا أُقِيمَ حوَالِيهِ سَدٌّ أَوْ حَاجِزٌ.

^٧ سكن إليه واستأنس به.

وَاسْتَيْقَظَ الطَّحَّانُ عَلَى انْقِطَاعِ صَوْتِ الطَّاحُونَةِ؛ لِأَنَّهَا وَقَفَتْ عِنْدَ انْقِطَاعِ مَوْرِدِ الْمَاءِ
عَنِ الْمَسِيلِ الَّذِي يُدِيرُ طَارَتَهَا، وَحَاوَلَ عَبَثًا أَنْ يَسُدَّ الْخَرَقَ بَعْدَمَا انْسَعَجَ، وَلَمَّا أَخْفَقَ،
طَفِقَ يُرْعِي وَيُزِيدُ وَيَقْرَعُ سِنَّ النَّدَمِ.

وَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ، إِذْ أَتَتْ دَجَاجَةٌ لِتَشْرَبَ مِنَ الْمَسِيلِ كَعَادَتِهَا، فَاسْتَشَاطَ الطَّحَّانُ غَضَبًا،
وَصَاحَ فِيهَا قَائِلًا: «إِنَّ هَذَا هُوَ كُلُّ مَا بَقِيَ لِي، وَأَنْتِ تُرِيدِينَ شُرْبَهُ وَحِرْمَانِي إِيَّاهُ. إِلَيْكَ
عَنِّي!» وَأَخَذَ حَجْرًا وَأَلْقَاهُ عَلَيْهَا، فَأَصَابَهَا فِي مَقْتَلٍ.^٨
وَهَكَذَا فَقَدَ الْمَاءَ وَالذَّجَاجَةَ مَعًا.

^٨ العضو الذي إذا أُصِيبَ مات صاحبه.

المزنة الفخورة

مَرَّتْ سَحَابَةٌ مُكْفَهَرَةٌ فَوْقَ أَرْضٍ لَفَحَهَا الْقَيْظُ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَسْكُبْ مِنْ مَائِهَا قَطْرَةً وَاحِدَةً
عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ الظَّامِئَةِ، وَاسْتَمَرَّتْ مُنْدَفِعَةً فِي سَيْرِهَا تَزَعُدُ وَتَبْرُقُ، وَلَمَّا صَارَتْ فَوْقَ
الْبَحْرِ الْعَظِيمِ، أَرْحَتْ لِنَفْسِهَا الْعِنَانَ، وَصَبَّتْ فِيهِ شَائِبِيهَا.^٢
وَعِنْدَمَا دَنَتْ مِنَ الْجَبَلِ طَفِيفَتْ تَتَبَجَّحُ^٣ بِمَا أُغْدَقَتْ عَلَى الْبَحْرِ، فَقَالَ لَهَا الْجَبَلُ
مُؤَنِّبًا: «وَمَا الْفَائِدَةُ مِنْ كُلِّ هَذَا الْكَرَمِ الَّذِي لَمْ يَقَعْ فِي مَحَلِّهِ؟ فَالْبَحْرُ كَانَ فِي غُنْيَةٍ عَنِ
مَائِكَ، بَيْنَمَا الْأَرْضُ الَّتِي مَرَرْتَ عَلَيْهَا إِلَى هَذَا الْبَحْرِ كَانَتْ — وَمَا زَالَتْ — فِي أَمْسٍ حَاجَةٍ
إِلَى قَطْرَةٍ مِنْ مِيَاهِكَ؛ لِأَنَّهَا أَجْدَبَتْ،^٤ وَأَشْرَفَ أَهْلُهَا عَلَى الْهَلَاكِ جُوعًا وَعَطَشًا، فَهِيَ أَوْلَى
وَأَحَقُّ بِجُودِكَ وَكَرَمِكَ اللَّذِينَ تَتَشَدَّقِينَ بِهِمَا.»

^١ سحابة ذات مطر.

^٢ الشؤبوب، الدفعة من المطر.

^٣ تبجج: أي افتخر وتعظم وباهى.

^٤ انقطع عنها المطر فبيست.

الدُّبُّ وَالشَّهْدُ

فِي الرَّبِيعِ الْمَاضِي، وَقَعَ اخْتِيَارُ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ عَلَى الدُّبِّ لِيَتَوَلَّى رِعَايَةَ النَّحْلِ وَحِرَاسَةَ خَلَايَاهُ، بِصَرْفِ النَّظَرِ عَمَّا اشْتَهَرَ بِهِ مِنَ الْوَلَعِ بِالشَّهْدِ، وَأَقْرَاصِ الشَّهْدِ، وَلَكِنْ مَنْ يَنْتَظِرُ مِنَ الْعَجَمَاتِ أَنْ تَعْقَلَ إِلَى حَدِّ اجْتِنَابِ مِثْلِ هَذِهِ الْهَفَوَاتِ؟! وَعَلَاوَةَ عَلَى ذَلِكَ، يَجِبُ أَلَّا يَغِيبَ عَنِ بَالِنَا أَنَّ مَهْمَةَ حِرَاسَةِ خَلَايَا النَّحْلِ لَا تَطِيبُ لِأَيِّ كَانِ.

وَقَبْلَ الدُّبِّ حَمَلَ أَعْبَاءِ مَنْصِبِهِ بِكُلِّ خُضُوعٍ وَامْتِنَالٍ.

وَبَعْدَ قَلِيلٍ قَامَتْ فِي الْغَايَةِ صَجَّةٌ؛ لِأَنَّ الدُّبَّ نَقَلَ مَا كَانَ فِي الْخَلَايَا مِنْ أَقْرَاصِ الشَّهْدِ إِلَى وِجَارِهِ فِي سَفْحِ الْجَبَلِ.

وَقَامَتْ قِيَامَةُ الْحَيَوَانَاتِ وَقَعَدَتْ، وَأَنْتَهَى الْأَمْرُ بِرَفْعِ الْأَمْرِ إِلَى الْمُحْكَمَةِ، فَحَكَّمَ الْقَاضِي بَعْزَلِ الدُّبِّ، وَأَوْجَبَ عَلَيْهِ مُلَازِمَةَ جُحْرِهِ وَحِيدًا طُولَ فَصْلِ الشِّتَاءِ، بِلَا أَنْيْسٍ أَوْ جَلِيسٍ، وَأَهْمَلَ الْحُكْمَ أَمْرَ الشَّهْدِ الْمَسْلُوبِ وَلَمْ يَثْرُ إِلَى وُجُوبِ رَدِّهِ إِلَى أَصْحَابِهِ. وَهَكَذَا قَضَى «أَبُو سَمْرَةَ» شِتَاءً سَعِيدًا، قَرِيرَ الْعَيْنِ بِوَحْدَتِهِ؛ يَلْحَسُ عَسَلَهُ مِنْ أَقْرَاصِهِ بِلَا شَرِيكِ أَوْ رَقِيبٍ ...!

الْقِرْدُ يَلْبَسُ النَّظَارَاتِ

أَسَنَّ^١ الْقِرْدُ، وَبَدَتْ تَنْتَابُهُ مُنْغَصَاتُ الشَّيْخُوحَةِ، وَرَأَى أَنَّ نَظْرَهُ قَدْ أَدْرَكَهُ الضَّعْفُ، فَحَزَنَ، وَاسْتَشَارَ مَنْ يَثِقُ بِرَأْيِهِمْ مِنْ بَنِي جِنْسِهِ، فَأَشَارُوا عَلَيْهِ بِلَبْسِ النَّظَارَاتِ؛ أَسْوَةً بِأَوْلَادِ عُمُومَتِهِمْ وَأَقَارِبِهِمْ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَهَوَّنُوا عَلَيْهِ بِتَذْكِيرِهِ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ لَا يَكْتَرِثُونَ لِهَذَا الْأَمْرِ؛ لِأَنَّهُمْ فِي مِثْلِ حَالَتِهِ، يَضَعُونَ عَلَى عُيُونِهِمْ زُجَاجَاتٍ صَغِيرَةً مُسْتَدِيرَةً، يَنْظُرُونَ مِنْ خِلَالِهَا كَمَا يُحِبُّونَ وَيَسْتَهْوُونَ.

وَأَرْشَدُوهُ إِلَى بَائِعِ هَذِهِ النَّظَارَاتِ، فَذَهَبَ إِلَيْهِ تَوًّا.^٢

وَبَطْرِيقَةٍ مَا حَصَلَ مِنْهُ عَلَى عَدَدٍ وَافِرٍ مِنْ أَجْمَلِ مَا كَانَ عِنْدَهُ مِنْهَا، وَعَادَ بِهَا إِلَى بَيْتِهِ وَهُوَ يَكَادُ يَطِيرُ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ، وَوَضَعَهَا أَمَامَهُ، وَأَخَذَ يَتَأَمَّلُهَا، وَيَزُوكُ^٣ حَوْلَهَا، وَهُوَ يَهْزُ رَأْسَهُ وَيَفْرِكُ يَدَيْهِ إِعْجَابًا بِبَرِيقِهَا، وَابْتِهَاجًا بِحُصُولِهَا عَلَيْهِا. وَلَمَّا هَدَأَتْ سُورَةُ الْفَرَحِ أَقْعَى^٤ أَمَامَهَا، وَبَدَأَ يَفْحَصُهَا وَيُجَرِّبُهَا عَلَى عَيْنَيْهِ بِرِزَانَةٍ وَعَلَى مَهْلٍ وَتَوُدَّةٍ، إِلَى أَنْ لَاحَتْ لَهُ بَوَادِرُ خَيْبَةِ أَمَلِهِ، فَأَخَذَ يُقَلِّبُهَا بَيْنَ يَدَيْهِ بِحَرَكَةٍ عَصِيْبَةٍ، أَخَذَتْ تَشْتَدُّ وَتَتَفَاقَمُ؛ حَتَّى بَلَغَتْ دَرَجَةَ الْهِيَاجِ (النَّرْفَرَةِ)^٥ عِنْدَمَا وَضَعَهَا عَلَى أَنْفِهِ فِي

^١ شاخ واستسن: أي كبرت سنه.

^٢ قاصداً لا يعرجه شيء.

^٣ يمشي مشية الغراب، أو يحرك منكبیه ويفرّج بين رجليه.

^٤ جلس على مؤخره، ومثلها قعد القرفصاء.

^٥ كلمة مُعْرَبَةٌ دَارِجَةٌ خفيفة على الأذن واللسان. ولم أجد ما يقابلها في العربية.

عَدَّةٍ أَوْضَاعٍ وَمَوَاضِعَ، وَعَلَى جَبِينِهِ، كَمَا يَفْعَلُ بَعْضُ أَبْنَاءِ آدَمَ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ فِي السَّنِّ،
وَبَعْدَمَا رَفَعَهَا وَخَفَّضَهَا، وَلَحَسَهَا بِلِسَانِهِ، وَنَفَخَ فِيهَا بِفَمِهِ، وَمَسَحَهَا بِشَعْرِ جَسَدِهِ دُونَ
فَائِدَةٍ، ثَارَ ثَائِرُهُ، وَفَارَ فَائِرُهُ، وَفِي حُمَيَّا غَضَبِهِ زَعَقٌ، وَقَالَ: «مَا أَسْحَفَ عَقْلَ هَؤُلَاءِ
الْأَدَمِيِّينَ، وَمَا أَحْمَقَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ يَسْتَعْمِلُونَ أَشْيَاءَ سَخِيفَةً كَهَذِهِ لَا فَائِدَةَ لَهَا.»
ثُمَّ أَمْسَكَ بِحَجَرٍ كَبِيرٍ، وَنَزَلَ عَلَيْهَا حَبْطًا وَدَقًّا حَتَّى هَشَّمَهَا تَهْشِيمًا، وَسَحَقَهَا
سَحَقًا.

وَلَمَّا هَدَأَ غَضَبُهُ، سَكَتَ لِحِظَةٍ، ثُمَّ هَزَّ رَأْسَهُ، شَأْنَ الْفَيْلِسُوفِ الْمُتَرَدِّدِ، وَقَالَ بِصَوْتٍ
حَزِينٍ: «وَمَنْ يَعْلَمُ؟ فَلَعَلَّ عَقْلِي أَنَا هُوَ السَّخِيفُ؟»

حَامِيهَا حَرَامِيهَا

يُحْكِي^١ أَنْ قَرَوِيًّا تَقَدَّمَ إِلَى شَحْنَةَ^٢ الْقَرْيَةِ يَشْكُو حَمَلًا أَكَلَ فَرَحْتَيْنِ مِنْ دَجَاجَاتِهِ، وَأُحِيلَتْ قَضِيَّتُهُ إِلَى الْمَحْكَمَةِ.

وَكَانَ قَاضِيهَا يُدْعَى أَبَا الْحَصِينِ^٣ مِنْ أَهْلِ النَّاحِيَةِ.
وَقَالَ الْقَرَوِيُّ إِنَّهُ ذَهَبَ بَاكِرًا فِي يَوْمِ الْحَادِثَةِ إِلَى حُمِّ دَجَاجِهِ، فَوَجَدَ الْحَمَلَ الْمُتَّهَمَ هُنَاكَ يَعْطُ فِي نَوْمِهِ، وَتَفَقَّدَ دَجَاجَتَيْنِ مِنْ دُجْجِهِ^٤ كَانَ يَخْتَصُّهُمَا بِعِنَايَتِهِ، فَلَمْ يَجِدْ سِوَى رِيَشِهِمَا وَبَعْضِ عِظَامِهِمَا، وَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَبْتَهُمْ أَحَدًا سِوَى الْحَمَلِ الَّذِي بَاتَ فِي الْحُمِّ، وَدَفَعَ الْحَمَلَ التُّهْمَةَ بِقَوْلِهِ: إِنَّهُ أَمْضَى كُلِّ اللَّيْلِ مُسْتَعْرِفًا فِي النَّوْمِ فِي بَيْتِ الدَّجَاجِ كَعَادَتِهِ؛ لِمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّاكِنِينَ هُنَاكَ مِنْ أَوَاصِرِ الْأُلْفَةِ وَالْوَدَادِ، لِإِنْعِدَامِ أَسْبَابِ الْعِدَاءِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، وَطَلَبَ اسْتِدْعَاءَ الْجِيرَانِ، وَكُلَّ أَهْلِ الضِّيْعَةِ؛ لِكَيْ يُقَرَّرُوا أَمَامَ الْمَحْكَمَةِ مَا يَعْلَمُونَهُ عَنْ أَخْلَاقِهِ وَسِرِّيَّتِهِ، حَتَّى يَطْمَئِنَّ قَلْبَ حَضْرَةِ الْقَاضِي إِلَى بَرَاءَتِهِ مِنْ هَذِهِ التُّهْمَةِ الشَّنِيْعَةِ، وَعِلَاوَةً عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يُقَرَّرُ أَمَامَ الْمَحْكَمَةِ أَنَّهُ لَمْ يَذُقْ لَحْمًا، لَا هُوَ وَلَا أَجْدَادُهُ؛ لِأَنَّ مَعْدَهُمْ لَا تَهْضُمُهُ، وَأَسْنَانُهُمْ لَا تَقْوَى عَلَى مَضْغِهِ.

^١ العنوان الروسي لهذه الأحدثة هو: «لما يكون الثعلب قاضيًا».

^٢ المعروفون بالبوليس.

^٣ أبو الحصين: كنية الثعلب.

^٤ قفص الدجاج، وقد استعرناها لبيت الدجاج المعروف في مصر وسوريا بلفظة «حُن» الدارجة.

^٥ جمع دجاجة، أما لفظه دجاج فإنها اسم النوع.

وَأَنْصَتَ الْقَاضِي بَكْلٌ جَوَارِحِهِ إِلَى أَقْوَالِ الْمُتَّهَمِ ثُمَّ أَطْرَقَ مُتَظَاهِرًا بِالتَّفَكِيرِ الْعَمِيقِ،
 ثُمَّ هَزَّ رَأْسَهُ، شَأْنَ الْأُسُوفِ،^٦ وَحَدَّدَ نَظْرَهُ إِلَى الْحَمَلِ، وَنَطَقَ بِالْحُكْمِ قَائِلًا: «إِنَّ الْمَحْكَمَةَ
 لَا يَسْعَاهَا قَبُولُ دِفَاعِ الْمُدْعَى عَلَيْهِ؛ فَكُلُّ الْمُجْرِمِينَ يَعْرِفُونَ كَيْفَ يَسْتُرُونَ جَرَائِمَهُمْ؛
 لِيَبْرُتُوا أَنْفُسَهُمْ، وَيَبَاعِرِزِفِ الْمُتَّهَمِ ذَاتِهِ قَدْ ثَبَتَ لِلْمَحْكَمَةِ أَنَّهُ قَضَى لِيَلَّةِ الْحَادِثَةِ فِي بَيْتِ
 الدَّجَاجِ، وَأَنَّهُ نَامَ هُنَاكَ نَوْمًا هَنِيبًا، طَبَعًا، بَعْدَمَا أَشْبَعَ شَهْوَتَهُ بِأَكْلِ لَحْمِ فَرِيَسْتِيهِ، وَكُلُّنَا
 نَعْرِفُ مَا لِلذَّةِ لَحْمِ الْفَرَاخِ مِنْ إِغْرَاءِ جَامِحٍ، فَبِنَاءٍ عَلَيْهِ، أَرَى — مِنَ الْعَدْلِ — أَنْ أَحْكَمَ
 عَلَى الْمُتَّهَمِ بِالدَّبْحِ، وَأَنْ تَسْتَوِي الْمَحْكَمَةُ عَلَى جُنَّتِهِ، أَمَا جَزَّتُهُ فَيُعْطَاهَا الْمُدْعَى تَعْوِيضًا
 عَنْ دَجَاجَتِيهِ، وَلِيَحْيِيَ الْعَدْلُ!»

^٦ الأسوف: الرقيق القلب.

العقاب والعنكبوت

دَوْمَ الْعُقَابِ^١ فِي كَيْدِ السَّمَاءِ، ثُمَّ انْضَرَجَ^٢ حَتَّى حَطَّ عَلَى أَرْزَةِ سَامِقَةٍ،^٣ قَائِمَةٍ عَلَى قِمَّةِ جَبَلٍ شَاهِقِ الْإِرْتِفَاعِ، وَجَثَمَ عَلَى أَعْلَى فَرْعٍ مِنْ فُرُوعِ الْأَرْزَةِ، مَأْخُودًا بِجَمَالِ الطَّبِيعَةِ السَّاحِرِ، يَتَأَمَّلُ مَا تَحْتَهُ وَحَوْلَهُ مِنَ السُّهُولِ وَالْوُدَيَانِ وَالْجِبَالِ وَالْأَنْهَارِ، وَالْبُحَيْرَاتِ، وَشَوَاطِئِ الْأَوْقِيَانُسَاتِ وَالْبَحَارِ، وَمَا يَتَخَلَّلُ كُلَّ ذَلِكَ مِنْ حُقُوقٍ وَقُرَى وَبُلْدَانٍ، ثُمَّ طَفِقَ يُنَاجِي نَفْسَهُ قَائِلًا: «شُكْرًا لِمُبْدِعِ الْكَائِنَاتِ عَلَى مَا اخْتَصَّنِي بِهِ مِنْ نِعْمَةٍ بِمَنْحِي تِلْكَ الْأَجْنِحَةَ الْقَوِيَّةَ الَّتِي امْتَرَزْتُ بِهَا عَنْ سِوَايَ مِنْ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ؛ لِأَنَّهَا تَسَاعِدُنِي عَلَى التَّحْلِيْقِ وَالْوُصُولِ إِلَى هَذَا الْإِرْتِفَاعِ الَّذِي أَسْتَطِيعُ مِنْهُ امْتِلَاكَ نَاصِيَةِ الْجَوِّ وَالْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَأَرَى مَا لَا تَقْدِرُ عَيْنُ مَخْلُوقٍ آخَرَ أَنْ تَرَاهُ مِنْ جَمَالِ هَذِهِ الْخَلِيقَةِ الَّتِي يَخْلُبُ الْأَلْبَابَ ...» وَفَجْأَةً سَمِعَ صَوِيَّ آتٍ مِنْ غُضُنٍ فَوْقَ مَجْتَمِ الْعُقَابِ، يَقُولُ: «يَا لَكَ مِنْ فَخُورٍ ثَرْتَارٍ! ارْفَعْ نَظْرَكَ أَيُّهَا الرَّفِيقُ وَاَنْظُرْ إِلَيَّ، أَلَسْتُ تَرَانِي أَحْتَلُّ مَكَانًا أَرْفَعُ مِنْ مَكَانِكَ؟»

^١ كَثُرَ الْخَلَطُ بَيْنَ الْعُقَابِ وَالنَّسْرِ، فَالْعُقَابُ أَعْظَمُ الْجَوَارِحِ، وَلَا تَقَعُ عَلَى الْحَيْفِ، إِلَّا إِذَا عَضَّهَا الْجَوْعُ، أَمَا النَّسْرُ فَإِنَّهُ يَأْكُلُ الْجِيْفَ وَقَلِمَا يَصِيدُ، وَهُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْعُقَابِ، وَلَا رِيْشَ لَهُ فِي رَأْسِهِ وَعُنُقِهِ، وَسَاقَاهُ عَارِيَتَانِ، بِخِلَافِ الْعُقَابِ، فَإِنَّهَا مُسْرُوْلَةُ السَّاقَيْنِ. وَلَا مَخَالِبَ لِلنَّسْرِ، بَلْ لَهُ أَظْفَارٌ لَا يَقْوَى عَلَى جَمْعِهَا لِحْمَلِ فَرِيْسَتِهِ كَمَا تَفْعَلُ الْعُقَابُ بِمَخَالِبِهَا.

^٢ انْضَرَجَتِ الْعُقَابُ: أَيِ انْحَطَّتْ مِنَ الْجَوِّ كَاسْرَةٍ.

^٣ عَالِيَةٌ طَوِيلَةٌ.

وَرَفَعَ الطَّائِرُ العَظِيمُ نَظْرَهُ، فَرَأَى عَنكَبَةً^٤ تَنسُجُ مِنْ لُعَابِهَا هَلَلًا^٥ بَيْنَ الأَعْصَانِ التِّي فَوْقَ رَأْسِهِ، كَأَنَّهَا تُحَاوِلُ أَنْ تَحْجُبَ عَن عَيْنَيْهِ بَهَاءَ الشَّمْسِ، فَسَأَلَهَا قَائِلًا: «وَكَيْفَ أَمْكَنَكَ الوُصُولُ إِلَى هَذَا المَكَانِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الوُصُولَ إِلَيْهِ مِنَ الطُّيُورِ سِوَى أَمْثَالِي مِنَ العُقْبَانِ القَوِيَّةِ الجَنَاحِ؟ وَأَنْتِ — فِيمَا يَلُوحُ لِي — ضَعِيفَةٌ صَغِيرَةٌ عَدِيمَةُ الأَجْنَحَةِ، وَلَسْتُ أَظُنُّ أَنَّكَ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَأْتِي إِلَى هُنَا زاحِفَةً؟»

وَأَجَابَتْهُ العَنكَبَةُ: «الْحَقُّ أَقُولُ لَكَ أَيُّهَا الجَارُ المَعْرُورُ: إِنَّ فِكْرَةَ الرَّحْفِ مِنَ السَّهْلِ إِلَى هَذَا الإِرْتِفَاعِ الشَّاهِقِ لَمْ تَخْطُرْ لِي بِبَالٍ، أَمَا الَّذِي فَعَلْتُهُ حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى هُنَا؛ فَهُوَ أَنِّي تَعَلَّقْتُ بِرَيْشَةٍ مِنْ رَيْشَاتِ ذَيْلِكَ، فَوَجَدْتُ نَفْسِي هُنَا دُونَ أَنْ أَكْدَأَ أَوْ أَتَعَبَ، وَهَذَا قَدْ شَرَعْتُ فِي بِنَاءِ بَيْتِي دُونَ احْتِيَاجِ إِلَى مَعُونَةٍ حَضَرْتِكَ، فَلَا تَنْفُخْ أَوْ دَاجِكِ^٦ عَلَيَّ، وَلَا تُحَدِّجْ بِبَصْرِكَ فِيَّ.»

وَقَدْ نَسِيْتُ أَنَّ رَيْشَاتِ ذَيْلٍ مَنْ تُخَاطِبُهُ بِهِذِهِ اللُّهْجَةِ الجَافِيَةِ قَدْ رَفَعَتْهَا مِنَ الحَضِيضِ إِلَى ذُرُورَةِ المَجْدِ! ...

وَقَبْلَمَا أَتَمَّتْ بَرَبْرَتَهَا كَانَتْ فِي طَرِيقِهَا إِلَى الهَلَاكِ؛ لِأَنَّ هَبَّةَ رِيحٍ دَفَعَتْهَا فَالَقَتْهَا عَنِ العُصْنِ إِلَى قَرَارِ هَاوِيَةٍ سَحِيقَةٍ لَا نَجَاةَ لَهَا مِنْهَا.

^٤ أنثى العنكبوت.

^٥ نسج العنكبوت.

^٦ الودج: عرق في العنق ينتفخ عند الغضب.

الْكُوكُو وَالْحَمَامَةُ

جَنَّمَ الْكُوكُو^١ عَلَى غُصْنِ شَجَرَةٍ وَارِفَةِ يَنُوحٍ وَيَعْنُولُ^٢، وَسَمِعْتُهُ حَمَامَةً كَانَتْ جَائِمَةً عَلَى فَرْعِ شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ، فَرْتَّتْ لَهُ وَسَأَلَتْهُ قَائِلَةً: «مَا خَطْبُكَ^٣ يَا صَاح؟ وَعَلَامَ هَذَا النُّوَّاحُ وَتِلْكَ الْوَقُوفَةُ؟ الْآنَ الرَّبِيعُ قَدْ وَلَّى وَوَلَّتْ مَعَهُ وَلِيْفَتُكَ؟ أَوْ لِأَنَّ وَجْهَ الشَّمْسِ بَدَأَ يَعْْبَسُ لِذُخُولِ الشِّتَاءِ؟»

فَأَجَابَهَا قَائِلًا: «لَيْتَ الْأَمْرَ كَانَ هَذَا أَوْ ذَاكَ، أَتَيْتُهَا الصَّدِيقَةَ، بَلْ إِنَّهُ أَذْهَى وَأَمْرٌ، وَسَأَذْكُرُهُ لِكَ لِيَتْرَى وَتَحْكُمِي.

فَأَنَا وَوَلِيْفَتِي كُنَّا نَهْنَأُ فِي الرَّبِيعِ بِأَرْغَدِ عَيْشٍ، وَرُزِقْنَا صِغَارًا مِنْ بَيْضَاتٍ نَزَلَتْ مِنْ صُلْبِنَا، فَأَوْدَعْنَاهَا عُشَّ أَصْحَابِنَا حَتَّى يَحِينَ حِينُ خُرُوجِهِمْ، لِتَقَرَّ بِهِمْ عِيُونُنَا، وَتَبْتَهَجَ بِمَرَاهِمِ نَفُوسِنَا، فَلَمَّا حَرَجُوا وَأَشْبُوا،^٥ أَنْكَرُونَا، وَجَفُونَا، كَأَنَّنا لَمْ نَكُنْ عَلَّةَ وُجُودِهِمْ.

^١ طائر على قدر الحمامة، كثير الصياح والوقوفة، اسمه بالإنكليزية Cuckoo وبالفرنسية Coucou وباللاتينية Cuculus، وقد كثر الخلط في اسمه العربي، فذكروا أنه «كوكو، وقوقل، وككم، وكنكر، ووقوق، ووقواق، وقيقوبة» وهذا الأخير اسم الجنس، ويطلق على الذكر والأنثى، والمعروف عنه أنه لا يحضن بيضه، بل يلقيه خلسة في عش طائر آخر، فإذا خرجت فراخه من البيض رَقَّها صاحب العش إلى أن تطير.

^٢ بكى مع رفع الصوت.

^٣ ما أمرك؟

^٤ على ماذا؟

^٥ شبَّ الغلام: أي صار فتياً.

ثُمَّ نَكَفَ دَمْعَةً^٦ كَانَتْ تَتَرَفَّرُقُ فِي عَيْنَيْهِ، وَقَالَ: تَبًّا لَهُمْ! أَهَذَا مَا يَنْتَظِرُهُ الْآبَاءُ مِنَ الْآبْنَاءِ؟ إِنْ رُوَيْتِي الدَّجَاجَةَ وَهِيَ تَضُمُّ فِرَاحَهَا تَحْتَ جَنَاحَيْهَا، أَوْ تَتَبَخَّرُ فِي وَسْطِهِمْ، أَوْ الْحَمَامَةَ وَهِيَ تَرُقُّ^٧ جَوَازِلَهَا،^٨ أَوْ الْوَرَّةَ وَهِيَ تَمِيسُ تَيْهَا بَيْنَ صِغَارِهَا، يَثِيرُ فِي نَفْسِي السَّخَطُ وَالْحَسَدُ؛ إِذْ أُجِدُّنِي جَالِسًا كَالْيَتِيمِ الَّذِي لَمْ يَدُقْ حَنَانَ الْوَالِدَيْنِ، أَوْ كَالْعَاقِرِ لَمْ تَحْظَ بِمَحَبَّةِ الْوَالِدِ..»

وَأَجَابَتْهُ الْحَمَامَةُ مُتَحَسِّرَةً: «يَا لَكَ مِنْ مَسْكِينٍ! إِنَّ مَا ذَكَرْتَهُ يَحْمِلُنِي عَلَى الرِّثَاءِ بِكُلِّ جَوَارِحِي لِحَالِكَ، وَلَكِنْ خَبَّرَنِي بِرَبِّكَ، وَقُلِ الْحَقُّ: هَلْ فَكَّرْتَ فِي حَيَاتِكَ فِي بِنَاءِ عُشٍّ تَضَعُ فِيهِ بَيْضَ رَفِيقَتِكَ لِتَرْحَمَ عَلَيْهِ، وَتَتَعَهَّدَهُ بِالْعِنَايَةِ الْوَاجِبَةِ إِلَى أَنْ تَخْرُجَ مِنْهُ فِرَاحُكَ إِلَى عُشِّكَ الدَّافِي، فَتَنْعَمَ بِقُرْبِهِمْ مِنْكَ، وَتَحْظِيَ بِهَنَائِكَ بِلَذَّةِ الْكُدِّ وَالتَّعَبِ وَالتَّضْحِيَةِ فِي سَبِيلِ تَنْشِئَتِهِمْ؟ أَمَّا الَّذِي أَعْلَمُهُ أَنَا، وَكُلُّ مَعَارِفِي، فَهُوَ أَنَّكَ وَوَلِيْفَتُكَ لَمْ تَفَكَّرَا إِلَّا فِي «هِنَاءِ وَرَعْدٍ» شَخْصِيكُمْ، وَلَمْ تَجِدَا مُتَسَعًا مِنْ وَقْتِكُمَا لِلتَّفَكِيرِ فِي مَصِيرِ فِرَاحِكُمَا بَعْدَ نَقْفِهِمُ الْبَيْضَاتِ الَّتِي قَذَفْتُمَا بِهَا فِي أَعْشَاشٍ، تَعَبَ عَيْرِكُمَا فِي تَهْيِئَتِهَا..»

وَقَالَ الْكُوكُو: «حَقًّا، إِنِّي لَمْ أُفَكِّرْ فِي بِنَاءِ عُشٍّ؛ لِأَنِّي أَحْسَبُ أَنَّ مِنَ الْعِبَادَةِ أَنْ أَقْضِيَ أَيَّامَ الصَّيْفِ مُرْتَبِطًا بِهِ، فَأُضَيِّعَ جَسَدِي وَجَسَدَ وَلِيْفَتِي بِاحْتِضَانِ الْبَيْضِ حَتَّى يَفْقَسَ، ثُمَّ نَحْرَمَ نَفْسَيْنَا مَا نَحْصُلُ عَلَيْهِ مِنْ غِذَاءٍ لِأَجْلِ تَغْذِيَةِ مَا يَخْرُجُ مِنْ هَذِهِ الْبَيْضَاتِ؛ وَلِذَلِكَ كُنْتُ أُلْقِي بِهَا خَلْسَةً إِلَى أَعْشَاشِ غَيْرِي، وَأَتْرُكُ لَهُمُ الْإِسْتِمْتَاعَ بِمَا يُعْرِفُ فِي عُرْفِكُمْ، أَنْتُمْ الْبُسْطَاءُ السُّدَجُ «بِلَذَّةِ الْكُدِّ، وَالتَّعَبِ، وَالتَّضْحِيَةِ»..»

فَجَاوَبَتْهُ الْحَمَامَةُ قَائِلَةً: أَشْكُرُ لَكَ إِفْصَاحَكَ عَن رَأْيِكَ فِي أَمْثَالِي، وَلَوْ أَنَّكَ لَمْ تَصِفْهُ بِاللِّبَاقَةِ الْوَاجِبَةِ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْمُحَادَثَاتِ، وَلَكِنْ، كَيْفَ تَنْتَظِرُ مِنْ صِغَارِكَ أَنْ يَعْرِفُوكَ وَيَلْتَفُوا حَوْلَكَ بَعْدَ مَا تَرَكْتَ مَتَاعَبَ فِقْسِهِمْ وَإِطْعَامِهِمْ وَتَرْبِيَّتِهِمْ لِسَوَاكَ؟ أَلَمْ يَبْلُغْكَ مَا قَالَهُ الْحُكَمَاءُ: «لَا رَاحَةَ إِلَّا بَعْدَ تَعَبٍ؛ وَلَا لَذَّةَ إِلَّا بَعْدَ أَلْمٍ، وَلَا هِنَاءَ إِلَّا بَعْدَ عَنَاءٍ، وَلَا نُورَ إِلَّا بَعْدَ ظُلْمَةٍ؟»

^٦ نَحَّاهَا بِأَصْبِعِهِ.

^٧ أَطْعَمَهَا بِمَنْقَارِهِ.

^٨ الْجَوْزَلُ: فِرْخُ الْحَمَامِ.

الْكُؤُوفُ وَالْحَمَامَةُ

«وَهَلْ نَسِيتَ قَوْلَهُمْ: إِنَّ مَا تَزْرَعُهُ إِيَّاهُ تَحْصُدُ، أَوْ: مَنْ يَزْرَعِ الشُّوكَ لَا يَحْصُدُ بِهِ
الْعِنْبَا؟»
ثُمَّ تَرَكَتُهُ وَطَارَتْ ...

المُوسِيقِيُّونَ

تَفَاهَمَ تَيْسٌ أَشْفَرُ، وَحِمَارٌ أَحْمَرُ، وَدُبٌّ أَسْمَرُ، وَقِرْدٌ أَبْرُ، عَلَى تَأْلِيفِ جَوْقَةٍ مُوسِيقِيَّةٍ، وَحَصَلُوا عَلَى كُلِّ مَا يَلْزَمُ لِلشُّرُوعِ فِي الْعَمَلِ مِنَ الْآتِ، وَمُجَسَّدَاتٍ،^١ وَحَامِلَاتِ الْمُجَسَّدَاتِ وَالْمَقَاعِدِ وَاتَّخَذُوا مَجْلِسَهُمْ تَحْتَ شَجَرَةٍ «زَيْرْفُون» وَارْفَةَ عِنْدَ مُلْتَقَى الطُّرُقِ، وَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِهِمُ الْمَقَامُ، طَفَقُوا يَعْرِفُونَ عَلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الْآتِ الطَّرِبِ لِتَشْنِيفِ الْأَدَانِ.

فَصَاحَ الْقِرْدُ قَائِلًا: «رُويِدُكُمْ أَيُّهَا الرَّفَاقُ؛ لِأَنِّي أَشْعُرُ أَنَّ ضَوْضَاءَ مُوسِيقَانَا مُزَعِجَةٌ حَقًّا، أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ وَضِعَ الْمُسْتَمِعُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ؟ لَعَلَّنَا إِنْ نَحْنُ بَدَلْنَا مَوَاضِعَنَا يَتَحَسَّنَ عَرْفُنَا.

فَيَا أَخِي الدُّبُّ، تَعَالَ وَاجْلِسْ هُنَا أَمَامَ أَحِينَا التَّيْسِ، وَأَنَا أَجْلِسُ هُنَاكَ خَلْفَ زَمِيلِنَا الْحِمَارِ.»

وَلَمَّا انْتَطَمَ مَجْلِسَهُمْ أَحَدُوا يُوقِعُونَ عَلَى آلَتِهِمُ الْحَانَا تَزْعِجُ الشَّيَاطِينَ. فَنَهَقَ الْحِمَارُ، ثُمَّ قَالَ: «أَرَى أَنِّي قَدْ اكْتَشَفْتُ سِرَّ هَذِهِ الْفَوْضَى فِي مُوسِيقِيَّتِنَا، فإِذَا غَيْرْنَا وَضَعْنَا، وَجَلَسْنَا جَنْبًا لِجَنْبٍ، لَا بَدَّ أَنْ عَرْفُنَا يَصِلَ إِلَى دَرَجَةٍ مِنَ الْإِتْقَانِ، تُرْضِي كُلَّ الْأَدَانِ.»

وَجَلَسَ الْأَرْبَعَةُ كَمَا اقْتَرَحَ الْحِمَارُ، وَبَدَّوْا يُوقِعُونَ أَنْغَامًا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ.

^١ المَجْسَدَةُ، وَجَمَعَهَا مَجَسَّدَاتٍ، كَلِمَةٌ اخْتَارَهَا مَجْمَعُ فَوَادِ الْأَوَّلِ لِللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ لِتَسْتَبْدِلَ بِهَا كَلِمَةَ «نُوتَةٌ مُوسِيقِيَّةٌ».

وَأَزْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ بِتَبَادُلِ اللَّوْمِ وَالشَّنَمِ، وَسَمِعَ صَخَبَهُمْ عِنْدَلَيْبٍ كَانَ جَانِمًا فِي أَعْلَى فَرْعٍ مِنَ الشَّجَرَةِ، فَاقْتَرَبَ مِنْهُمْ، وَلَمَّا رَأَوْهُ رَفَعُوا أَبْصَارَهُمْ نَحْوَهُ، وَتَوَسَّلُوا إِلَيْهِ، بِصَفْتِهِ مُوسِيقَارِ الطُّيُورِ الْأَشْهَرِ، أَنْ يُرْسِدَهُمْ إِلَى الْوَضْعِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَتَّخِذُوهُ فِي جُلُوسِهِمْ لِكَيْ يَضْمَنُوا حُسْنَ الْعَزْفِ عَلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مِنْ آلَاتِ مُوسِيقِيَّةٍ لَا بَأْسَ بِهَا؛ لِأَنَّهُمْ يَرُونَ أَنَّ سَبَبَ فَسْلِهِمْ يَرْجِعُ إِلَى جَهْلِهِمْ هَذَا الْأَمْرَ فَقَطُّ.

وَنَظَرَ إِلَيْهِمُ الْعِنْدَلَيْبُ مِنْ مَجْتَمِعِهِ، وَهَزَّ رَأْسَهُ أَسْفًا وَحَسْرَةً، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّهَا الرَّفَاقُ الْأَعْرَاءُ، يُؤَسِّفُنِي جِدًّا أَنْ أُجِيبَكُمْ بِمَا يُحِبُّ أَمْلَكُمْ؛ فَقَدْ قَالُوا: «حَقُّ يَضُرُّ، خَيْرٌ مِنْ بَاطِلٍ يَسُرُّ»، أَوْ «الْحَقُّ خَيْرٌ مَا يُقَالُ».

فَإِنَّ الَّذِي كَانَ يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَعْلَمُوهُ، قَبْلَ التَّفَكِيرِ فِي تَأْلِيفِ فِرْقَتِكُمْ، هُوَ أَنَّ الْمُوسِيقَى فَنٌّ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُحْسِنَهُ إِلَّا الَّذِينَ دَرَسُوهُ وَمَارَسُوهُ مِنْ أَصْحَابِ الذُّوقِ السَّلِيمِ، أَمَّا نِظَامُ جُلُوسِ أَفْرَادِ الْفِرْقَةِ فَإِنَّهُ لَا يُقَدِّمُ وَلَا يُؤَخِّرُ عَلَى مَا أَعْلَمُ!»

الكرمة والبُلُوطَة

رَحَفَتِ الْكُرْمَةُ حَتَّى بَلَغَتْ سِيَاحَ الْحَدِيقَةِ، وَبَدَأَتْ تُلْفُ مَحَالِقَهَا^١ أَوْ عَنَمَهَا،^٢ حَوْلَ إِحْدَى الْقَوَائِمِ الْخَشِيبَةِ الَّتِي كَانَتْ هُنَاكَ.

وَكَانَتْ بُلُوطَةٌ صَغِيرَةٌ قَدْ نَبَتَتْ وَأُورِقَتْ فِي الْحَقْلِ خَارِجِ السِّيَاحِ، وَبَعِيدَةً عَنْهُ، فَنظَرَتْ إِلَيْهَا الْكُرْمَةُ، وَخَاطَبَتِ الْقَائِمَةَ الْخَشِيبَةَ قَائِلَةً: «مَا أَبْهَجَ مَنْظَرِكَ وَأَفْخَمَهُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى هَذِهِ الْبُلُوطَةِ، الَّتِي عَلَى رِغْمِ كَوْنِهَا مَكْسُوءَةٌ بِأُورَاقِي، فَإِنَّ لَوْنَ هَذِهِ الْأُورَاقِ أَحْضَرَ دَاكِنٌ، يَقْبِضُ النَّفْسَ، وَأَعْصَانَهَا صُلْبَةٌ قَاسِيَةٌ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِلْوُقُودِ، وَإِنِّي لَسْتُ أَفْهَمُ عَلَامَ تَطْعُمِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذِهِ النَّبَاتِ الْعَقِيمَةِ.

أَمَا أَنْتِ فَإِنَّكِ سَتَنْصَبِحِينَ بِاسْتِقَامَةِ عُودِكَ، وَجَمَالِ مَا سَأَخْلَعُهُ عَلَيْكِ مِنْ سِرْبَالٍ نَاضِرٍ مُنْقَطِعِ النَّظِيرِ، قُرَّةَ عِيُونِ النَّاطِرِينَ وَبَهْجَةَ حَوَاطِرِهِمْ.»

وَحَدَّثَ بَعْدَ أَيَّامٍ أَنْ أَحْتَاجَ صَاحِبُ الْحَدِيقَةِ إِلَى الْقَائِمَةِ الْخَشِيبَةِ، فَنَقَلَهَا إِلَى مَكَانٍ بَعِيدٍ، ثُمَّ نَقَلَ الْبُلُوطَةَ إِلَى مَكَانِهَا، حَيْثُ نَمَتْ وَتَرَعَرَعَتْ، وَمَدَّتِ الْكُرْمَةُ مَحَالِقَهَا إِلَى أَعْصَانِ الْبُلُوطَةِ.

وَكَعَادَتِهَا بَدَأَتْ تُطَوِّفُهَا بِهَا، وَتَمَلَّقَهَا بِأَحْسَنِ وَأَبْلَغِ مَا تَمَلَّقَتْ بِهِ الْقَائِمَةَ الْخَشِيبَةَ مِنْ قَبْلِهَا ...

^١ خيوط يتعلَّقُ بها الكرم في تعريشه.

^٢ خيوط يتعلَّقُ بها الكرم في تعريشه.

القرد في المرأة

نَظَرَ قَرْدٌ فِي مِرَاةٍ؛ فَرَأَى شَبَحًا قَبِيحَ الْمُنْظَرِ يُحَدِّقُ فِيهِ، فَأَدَارَ وَجْهَهُ إِلَى دُبِّ كَانَ وَاقِفًا إِلَى جَانِبِهِ، فَوَكَّزَهُ بِمِرْفَقِهِ، وَقَالَ لَهُ: انْظُرْ! مَا أَقْبَحَ كَلْحَةَ هَذَا الْحَيَوَانَ الْمُخِيفِ الَّذِي أَرَى فِي الْمِرَاةِ، فَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ السُّحْنَةُ — الْهَيْئَةُ — الْبِشْعَةُ لِي لَقَضَيْتُ عَلَى نَفْسِي؛ كَيْ لَا يَتَضَرَّرَ غَيْرِي مِنْ رُؤْيِي.

وَلَا أُخْفِي عَنْكَ أَنِّي شَاهَدْتُ بَيْنَ أَصْحَابِي بَعْضَ وُجُوهِ، لَهَا مِثْلُ كُلُّوْحَةِ هَذَا الْوَجْهِ، وَأَطُنُّ عَدَدَهَا لَا يَتَجَاوَزُ الْخَمْسَةَ أَوْ السِّتَّةَ، بَيْنَ عَدَدٍ وَافِرٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَصْحَابِ الَّذِينَ يَزِيدُ عَدَدُهُمْ عَلَى مِائَةٍ أَوْ مِائَتَيْنِ أَوْ ...

فَقَاطَعَهُ الدُّبُّ قَائِلًا: «هُوَ عَلَيْكَ يَا صَاحِ، وَلَا تُكَلِّفْ خَاطِرَكَ مَشَقَّةَ إِحْصَاءِ أَصْحَابِكَ، بَلْ انْظُرْ إِلَى الْمِرَاةِ جَيِّدًا، تَرَّ فِيهَا نَفْسَكَ فَتَعْرِفَهَا.»
«يَا عَائِبَ لَا تَعَبْ، فَلَعَلَّ يَكُونُ لَكَ فِي الْعَيْبِ نَصِيبًا!»

الفار^١ والوزة^٢ والسمة^٣ والحنجل^٤

اجتمع أربعتهم لجر مركبة صغيرة ليس عليها ثقل،^٤ وأخذ كل منهم مكانه حول المركبة، وشرعوا في عملهم بكل إخلاص، ولكن المركبة لم تتحرك قيد أنملة،^٥ وأعادوا الكرة؛ بعد أن تباحتوا وتشاحنوا لمعرفة أيهم المقصر في بذل جهده أسوة بشركائه، وبعد أن تفاهموا وتصالحوا وتعاهدوا على الإخلاص في العمل، بدءوا محاولتهم الثانية لجر المركبة، ولكنها على رغم إخلاص كل منهم في عمله، لم تتقلقل من مكانها. وأخيراً بدا لهم أن يتفوقوا على تركيز قواهم بالتوقيت الموسيقي المألوف لدى العمال أو الحمالين من بني الإنسان، عندما يرغبون في رفع شيء ثقيل يحتاج إلى مجهود عظيم موحد، وهو قولهم: هيلاً ليصاً! هيلاً هب! وجربوا هذه الطريقة أيضاً فلم يفلحوا، ولما يئسوا من النجاح، ذهب كل منهم في سبيله، وبقيت المركبة تنتظر من يجرها.

^١ الفار والفاة بلا همزة عربية صحيحة.

^٢ الوزة لغة في الإوزة. ويحسن تعميم هذه الألفاظ وأمثالها لخفتها على اللسان والأذن.

^٣ والجمع حناجل، حيوان قشري برمائي يُعرف في مصر بهذا الاسم، وبأبو جلمبو، وفي سوريا بالسلطعون، وكل هذه الأسماء أعذب من كلمة «سرطان» المخيفة.

^٤ حمل ثقيل.

^٥ مسافة رأس الإصبع.

وَإِنْ لَمْ تَكُنْ — يَا قَارِئِي الْعَزِيزُ — قَدْ أَدْرَكْتَ إِلَى الْآنَ سَبَبَ إِخْفَاقِ هَذِهِ الْجَمَاعَةِ؛ فَإِنِّي
أُخْبِرُكَ أَنَّهُ يَعُودُ إِلَى اخْتِلَافِ عُنَاصِرِ أَفْرَادِهَا، وَتَنَافُرِ طِبَاعِهِمْ.
ذَلِكَ لِأَنَّهُ بَيْنَمَا كَانَ الْفَارُ يَجْرُ الْمَرْكَبَةَ مُتَّجِهَاً إِلَى الْأَمَامِ، كَانَتِ الْوَزَّةُ تَطِيرُ فَتَجْرُهَا
إِلَى فَوْقَ، وَالسَّمَكَةُ تَغُوصُ فَتَجْرُهَا إِلَى تَحْتِ، وَالْحَنْجَلُ يَتَّقَهْقِرُ إِلَى خَلْفِ كِعَادَتِهِ؛ لِأَنَّهُ لَا
يَمْشِي إِلَّا إِلَى الْوَرَاءِ، فَيَجْرُهَا مَعَهُ فِي اتِّجَاهِ مُعَاكِسِ لِاتِّجَاهِ الْفَارِ.

الغَنَمُ وَالذَّنَابُ

مُنذُ الْأَزْمِنَةِ الْمُتَعَلِّغَةِ فِي الْقَدَمِ، وَالصَّرَاعُ قَائِمٌ بِلَا هَوَادَةٍ بَيْنَ قَبَائِلِ الْغَنَمِ وَعَشَائِرِ الذَّنَابِ. وَكَانَتْ كِفَّةُ الظَّفَرِ — دَائِمًا أَبَدًا — رَاجِحَةً فِي نَاحِيَةِ الذَّنَابِ الْمُفْتَرِسَةِ، الَّتِي لَا نَفْعَ مِنْهَا يُرْتَجَى؛ ذَلِكَ لِأَنَّ الطَّبِيعَةَ الْعَمِيَاءَ قَدْ سَلَّحَتْهَا اعْتِبَاطًا بِأَفْضَلِ مَعْدَاتِ الْهُجُومِ وَالِدَّفَاعِ، بَيْنَمَا حَرَمَتِ الْغَنَمَ الْوَادِعَ، النَّافِعَ بِصُوفِهِ وَلَبِنِهِ وَلَحْمِهِ، مَعْدَاتِ الْهُجُومِ، وَلَمْ تَزُودَهُ إِلَّا بِأَضْعَفِ مَعْدَاتِ الدَّفَاعِ.

وَلَمَّا ضَاقَتِ الْغَنَمُ دَرْعًا بِهَذَا الظُّلْمِ الصَّارِحِ، التَّجَأَتْ إِلَى الرُّعَمَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ، تَطَلُّبُ الْعُورِ وَالتَّدْبِيرِ لَوْضَعِ حَدٍّ لِهَذِهِ الْحَالِ؛ الَّتِي لَا يَصِحُّ السُّكُوتُ عَلَيْهَا.

وَأَظْهَرَ الرُّعَمَاءُ أَهْنِمَامَهُمْ بِالْأَمْرِ، وَعَطَفَهُمْ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ، وَاجْتَمَعُوا وَتَشَاوَرُوا وَتَبَاحَثُوا وَتَنَاقَشُوا، وَبَعْدَ اللَّتِيَّ وَالَّتِي تَمَكَّنُوا مِنْ جَعْلِ رُؤَسَاءِ عَشَائِرِ الذَّنَابِ يَرْضُونَ بِحُضُورِ مَجْلِسِهِمْ لِإِسْتِنَاسِ بَرَأْيِهِمْ؛ إِذْ مِنْ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ أَنْ نَعْتَرِفَ بِمَا لِبَعْضِهِمْ مِنَ الْعَوَاطِفِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَالزُّهْدِ فِي لُحُومِ الضَّانِ، إِلَّا عِنْدَمَا يَعْضُهُمُ الْجُوعُ بِأَنْيَابِهِ.

وَانْعَقَدَتِ الْجَلْسَةُ بِحُضُورِ نَوَابِ الطَّرْفَيْنِ الْمُتَنَازِعَيْنِ، وَأَدْلَى كُلُّ بَرَأْيِهِ، وَبَعْدَ الْأَخْذِ وَالرَّدِّ تَقَرَّرَ بِالْإِجْمَاعِ الْمُوَافَقَةَ عَلَى سَنِّ قَانُونٍ اقْتَرَحَهُ رُعَمَاءُ الذَّنَابِ.

وَالَيْكَ نَصُّهُ، كَمَا وَرَدَ فِي مَحْضَرِ وَقَائِعِ الْجَلْسَةِ، بَعْدَ الدِّيْبَاجَةِ: «... فَإِذَا اجْتَرَأَ أَحَدُ الذَّنَابِ عَلَى مُضَايِقَةِ قَطِيعِ مُسَالِمٍ مِنَ الْغَنَمِ، وَتَمَادَى حَتَّى هَاجَمَ شَاةً قَاصِدًا إِلَى افْتِرَاسِهَا، فَيُصِيبُ لِتِلْكَ الشَّاةِ مُطْلُقَ الْحَقِّ، ارْتِكَانًا عَلَى هَذَا الْقَانُونِ، فِي أَنْ تُمَسِكَ بِتَلَابِيْبِ هَذَا الذَّنْبِ الْمُعْتَدِي، وَتَجَرَّهُ إِلَى الْمَحْكَمَةِ؛ لِيُنَالَ الْجَزَاءَ الْعَادِلَ، إلخ...»

أحاديث روسية

وَبِرَغْمِ قِيَامِ هَذَا الْقَانُونِ الْعَادِلِ ... فَإِنَّا مَا زِلْنَا نَرَى وَنَسْمَعُ: أَنَّ الدُّبَابَ هِيَ الَّتِي مَا
بَرِحَتْ تَفْتَرِسُ الْغَنَمَ.

القروي يستجدي

فِي لَيْلَةٍ لَيْلَاءٍ،^١ تَسَلَّلَ لِصُّ إِلَى دَارِ غَنِيِّ، وَخَرَجَ مِنْهُ حَامِلًا كُلَّ مَا كَانَ فِيهِ مِنْ مَالٍ، وَهَكَذَا أَصْبَحَ صَاحِبُ الدَّارِ مَعْسُورًا؛ بَعْدَ أَنْ أَمْسَى مَيْسُورًا.

وَأَلْبَاهُ الْفَقْرُ إِلَى الشُّحَاذَةِ؛^٢ وَبَدَأَ بِاقْرَبِ مَنْ كَانَ يَطْنُهُ «صَدِيقًا لَوْقَتِ الضِّيقِ».

فَأَجَابَهُ هَذَا، بَعْدَ أَنْ هَزَّ رَأْسَهُ، تَحَسَّرًا عَلَيْهِ: «يَا صَدِيقِي الْقَدِيمِ، إِنَّ مَا أَصَابَكَ لَيْسَ إِلَّا نَتِيجَةُ طَبِيعِيَّةٍ لِكثْرَةِ مَا كُنْتَ تَتَحَدَّثُ بِهِ عَن مَالِكَ وَتَرَوْتِكَ، حَتَّى أَطْمَعْتَ هَذَا اللَّصَّ اللَّئِيمَ وَأَعَزَيْتَهُ بِسِرْفَتِكَ، وَهَكَذَا تَرَى أَنَّكَ قَدْ أَخْطَأْتَ ضِدَّ نَفْسِكَ، وَفِي حَقِّ أَصْحَابِكَ؛ لِأَنَّكَ أَفْقَدْتَهُمْ صَدِيقًا كَانُوا يَدْخِرُونَهُ لَوْقَتِ الضِّيقِ، وَبِمَا أَنَّكَ قَدْ أَخْطَأْتَ؛ فَعَلَيْكَ أَنْ تَتَحَمَّلَ نَتِيجَةَ خَطِيئِكَ وَحَدِّكَ، وَاللَّهِ فِي عَوْنِكَ!»

وَقَالَ لَهُ صَدِيقٌ آخَرُ: «هَذَا دَرُسٌ يَنْفَعُكَ يَا صَاحِ، وَمِنْهُ تَتَعَلَّمُ أَنَّ مَنْ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ لَكَ مِنْ مَالٍ، يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَنَامَ وَرَاءَ بَابِ مَخْرَجِهِ»، وَصَرَفَهُ بِنَظَرَةٍ تُشِيرُ إِلَى الْبَابِ الَّذِي دَخَلَ مِنْهُ، وَلَمْ يَمُدَّ إِلَيْهِ يَدَهُ، لَا بِخَيْرٍ وَلَا بِشَرٍّ.

أَمَّا الصَّدِيقُ الثَّلَاثُ؛ فَكَانَ أَطْوَلَهُمْ بَاعًا؛^٣ إِذْ قَالَ: «إِنِّي آسَفٌ جِدًّا الْأَسْفَ لِمَا أَصَابَكَ أَيُّهَا الصَّدِيقُ، وَثِقَ أَنَّ كُلَّ عَوَاطِفِي مَعَكَ، وَأَرْجُو أَنْ يُعَوِّضَكَ اللَّهُ أَعْصَافَ مَا ضَاعَ مِنْكَ

^١ طويلة شديدة السواد.

^٢ هي الاستجداء أو التسؤل.

^٣ أجودهم.

بِإِهْمَالِكَ؛ إِذْ كَانَ يَجْدُرُ بِكَ — كَيْ تَحَافِظَ عَلَى ثَرْوَتِكَ — أَنْ تَقْتَنِي كَلْبَ حِرَاسَةٍ مِثْلَ
كَلْبِي.

وَيَسُرُّنِي أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكَ جَرَوَيْنِ، لَا حَاجَةَ لِي بِهِمَا، وَكُنْتُ عَلَى وَشِكِ إِغْرَاقِهِمَا
لِأَنْتَخَلَّصَ مِنْهُمَا، فَإِنْ شِئْتَ فَخُذْ أَحَدَهُمَا لِتُرِيحَنِي مِنْ عَنَاءِ إِغْرَاقِهِ، وَلَا تَنْتَظِرْ مِنِّي أَكْثَرَ
مِنْ ذَلِكَ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الصَّدِيقُ الْعَزِيزُ!»

الذُّبُّ وَجَرُّهُ

لَمَّا رَأَى الذُّبُّ أَنَّ جَرُّهُ الْعَزِيزَ قَدْ اشْتَدَّ سَاعِدُهُ، وَحَانَ وَقْتُ تَعْلِيمِهِ وَتَدْرِيبِهِ وَتَثْقِيفِهِ،
بَدَأَ يَسْتَصَحِّبُهُ فِي رَوْحَاتِهِ وَجَبَابَتِهِ وَبَعْضِ غَرَوَاتِهِ، وَلَمْ يَدَّخِرْ وَسْعًا فِي تَلْقِينِهِ مَا يَجِبُ أَنْ
يُلِّمَّ بِهِ؛ كَيْ يَسْتَطِيعَ حَوْضَ مُعْتَرِكِ الْحَيَاةِ لِكَسْبِ قُوَّتِهِ وَقُوَّتِ عِيَالِهِ.

وَفِي صَبَاحِ أَحَدِ الْأَيَّامِ، أَرْسَلَهُ إِلَى ضَوَاحِي الْغَابَةِ، عَسَاهُ يَجِدُ فُرْصَةً سَانِحَةً لِاِقْتِنَاصِ
خُرُوفٍ يَتَصَبَّحُونَ^١ بِهِ، وَعَادَ الْجَرُّ يَتَقَمَّرُ فَرَحًا، وَقَالَ لِأَبِيهِ: تَعَالَ حَالًا، كَيْ أُرِيكَ
مَصَادًا^٢ قَرِيبًا نَجِدُ فِيهِ صُبْحَةً^٣ شَهِيَّةً، فَقَدْ رَأَيْتُ عِنْدَ مُنْعَطَفِ الْوَادِي قَطِيعًا، كُلُّ
خِرْفَانِهِ سَمِينَةٌ، فَأَسْرِعْ وَتَعَالَ مَعِي؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا عَلَيْنَا عَمَلُهُ، هُوَ الْاِخْتِيَارُ. ثُمَّ الْخَطْفُ، ثُمَّ
الْأَكْلُ ...

وَقَالَ الْأَبُ لِابْنِهِ: «مَهَلًا يَا وَلَدِي الْعَزِيزُ! وَخَبِّرْنِي أَوَّلًا مَاذَا عَرَفْتَ عَنْ رَاعِي هَذَا
الْقَطِيعِ؟»

فَقَالَ الْإِبْنُ: «قَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُ رَاعٍ دَائِمُ الْيَقْظَةِ، وَأَنَّهُ يَرَعَى غَنَمَهُ بِكُلِّ فِطْنَةٍ وَنَشَاطٍ،
وَلِكِنِّي جُلْتُ حَوْلَ الْقَطِيعِ، وَفَحَصْتُهُ، وَاخْتَبَرْتُ كِلَابَ حِرَاسَتِهِ، وَهُمْ قَلِيلُو الْعَدَدِ؛ فَلَمْ
أَعْرِضْمْ أَقَلَّ اهْتِمَامٍ؛ لِأَنَّهُمْ لِفَرْطِ سِمْنِهِمْ وَكَسْلِهِمْ، لَا يُخْشَى بِأَسْهُمٍ.»

^١ أي يأكلون أكلة الصباح.

^٢ موضع صيد.

^٣ ما تعلقت به غدوة، وهو المعروف الآن في مصر «بالفطور» وفي سوريا «بالترويقة».

فَهَزَّ الذُّنْبُ رَأْسَهُ، وَهَمَّهَمْ قَائِلًا: «إِنَّ مَا ذَكَرْتَهُ يَا بُنَيَّ لَا يُغْرِينِي بِمُدَاعَبَةِ حَظَّنَا
مَعَ هَذَا الْقَطِيعِ؛ لِأَنَّكَ قُلْتَ: إِنَّ رَاعِيَهُ فَطِينٌ حَكِيمٌ، وَبِمَا أَنَّهُ كَذَلِكُ، فَلَا بَدَّ مِنْ أَنَّهُ عَرَفَ
كَيْفَ يَخْتَارُ الْكِلَابَ الصَّالِحَةَ لِجِرَاسَةِ خِرْفَانِهِ، وَهَيَّا بِنَا أَدُلُّكَ عَلَى قَطِيعٍ آخَرَ، يَحْرُسُهُ
عَدَدٌ وَافِرٌ مِنَ الْكِلَابِ؛ وَلَأَنِّي أَعْرِفُ أَنَّ رَاعِيَهُ عَبِيٌّ قَلِيلُ الْفِطْنَةِ، فَلَسْتُ أَخْشَى كِلَابَهُ؛ لِأَنَّهُ
لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَخْتَارُهَا.

فَحَيْثُمَا تَجِدُ أَنَّ الرَّاعِيَّ عَدِيمُ الْفِطْنَةِ فَكُنْ وَاثِقًا مِنْ أَنَّ كِلَابَهُ لَا يُخْشَى بِأُسْهَاءِ.»

^٤ رَدَّدَ الزُّبَيْرُ فِي صَدْرِهِ مِنَ الْهَمِّ.

الفلاح واللص

ذَهَبَ فَلَاحٌ كَانَ قَدْ شَرَعَ فِي إِنْشَاءِ مَزْرَعَةٍ صَغِيرَةٍ إِلَى السُّوقِ، وَاشْتَرَى بَقْرَةً وَمَدْلَجَةً^١،
وَفِي أَثْنَاءِ عَوْدَتِهِ، سَطَا عَلَيْهِ لِصٌّ لَيْئِمٌ، وَجَرَدَهُ مِنْ كُلِّ مَا كَانَ مَعَهُ.
وَأَخَذَ الْفَلَاحُ الْمُسْكِينَ يَسْتَعِطِفُهُ، وَيَسْتَرْحِمُهُ، بِكُلِّ مَا حَضَرَهُ مِنَ الْعِبَارَاتِ الْمُؤَثِّرَةِ،
رَاجِعًا أَنْ يَرِقَّ لَهُ قَلْبُهُ، وَقَالَ لَهُ: «ارْحَمْنِي يَرْحَمَكَ اللهُ، أَيُّهَا الرَّفِيقُ! فَإِنِّي قَدْ كَدَدْتُ
وَكَدَحْتُ حَوْلًا كَامِلًا حَتَّى تَمَكَّنْتُ بِعَرَقِ جَبِينِي مِنْ جَمْعِ مَا اشْتَرَيْتُ بِهِ هَذِهِ الْبَقْرَةَ، وَكَمْ
كُنْتُ أَعْلَلُّ نَفْسِي بِهَذَا الْيَوْمِ الْمُؤَمَّلِ الَّذِي أَجِدُ نَفْسِي فِيهِ صَاحِبَ بَقْرَةٍ فِي مَزْرَعَةٍ صَغِيرَةٍ،
وَالآنَ، إِنَّ أَنْتَ حَرَمْتَنِي إِيَّاهَا فَإِنَّكَ تَهْدِمُ كُلَّ مَا بَنَيْتَهُ مِنَ الْأَمَالِ، فَتَكْسِرُ قَلْبِي وَ...»
فَقَالَ اللَّصُّ مُقَاطِعًا، وَقَدْ بَدَأَ عَلَيْهِ التَّأَثُّرُ: لَا تَجْرَعْ أَيُّهَا الرَّفِيقُ الطَّيِّبُ الْقَلْبِ، وَلَا
تَحْسِبْنِي مِنَ اللَّصُوصِ قُسَاةِ الْقُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَرْحَمُونَ ضَحَايَاهُمْ الْمَسَاكِينَ أَمْثَالِكَ!
فَهَاكَ السُّطْلُ فَخُذْهُ فَلَا حَاجَةَ لِي بِهِ؛ لِأَنِّي سَأَبِيعُ الْبَقْرَةَ عِنْدَ أَوَّلِ فُرْصَةٍ بَعْدَمَا أَتْرُكُكَ،
فَاذْهَبْ فِي سَبِيلِكَ، وَادْعُ لِي بِالتَّوْفِيقِ وَالسُّتْرِ، وَعَلَيْكَ السَّلَامُ.

^١ عُلْبَةٌ كَبِيرَةٌ يَنْقَلُ فِيهَا اللَّبَنُ، وَتَعْنِي: الدَّلْوُ أَوْ السُّطْلُ، وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ الْأَخِيرَةُ أَقْرَبُهَا مَجْمَعُ فَوَادِ الْأَوَّلِ
لِللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

الأفعى الشريرة

اخْتَبَاتِ الْأَفْعَى فِي كَوْمَةِ حَطَبٍ، وَأَخَذَتْ تَنْدَمَرُ وَتَجَدَّفُ عَلَى رَبِّهَا، وَتَشْكُو قَسْوَةَ الْعَالَمِ
وَشَرَّهُ، وَكَانَتْ عَيْنَاهَا تَقْدَحَانِ شَرَرَ الْكُرْهِ وَالْبُغْضِ وَالْحَقْدِ، الْمُنْبِعِثِ مِنْ طَبِيعَتِهَا
الشَّرِيرَةِ، فَتَرَاهُ مُنْعَكِسًا عَلَى كُلِّ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ نَظَرُهَا.

وَفِيمَا هِيَ كَذَلِكَ؛ إِذْ مَرَّ بِقُرْبٍ مَكْمَنِهَا حَمَلٌ وَدِيعٌ لِعُوبٍ، وَلَمْ يَفْطَنْ لِمَا حَبَّأَهُ لَهُ
الْقَدْرُ، إِلَّا عِنْدَمَا أَحَسَّ بِأَنْيَابِ الْحَيَّةِ الْحَبِيبَةِ تَنْهَشُ رَقَبَتَهُ.
فَأَنَّ الْمُسْكِينُ مِنْ شِدَّةِ الْأَلَمِ، وَصَرَخَ قَائِلًا: «مَا ذَنْبِي حَتَّى يَقْسُوَ عَلَيَّ قَلْبُكَ هَكَذَا؟»
فَأَجَابَتْهُ الْحَيَّةُ قَائِلَةً: «مَنْ أَيْنَ لِي أَنْ أَعْرِفَ ذُنُوبَكَ، أَوْ مَا كُنْتَ تُبَادِرُنِي بِهِ لَوْ كُنْتَ
تَرَكْتَكُ وَشَأْنَكَ؟! وَمِمَّا لَا أَشْكُ فِيهِ، هُوَ أَنَّي لَوْ لَمْ أَبَادِرْكَ لَكُنْتَ نَفَذْتَ فِيَّ مَا حَضَرَتْ إِلَيَّ
هُنَا لِأَجْلِهِ؛ وَلِأَنِّي وَاثِقَةٌ مِنْ أَنَّكَ جِئْتَ لِقَتْلِي، عَاجِلْتُكَ وَسَبَقْتُ؛ فَبَدَأْتُ بِقَتْلِكَ حَتَّى لَا أُنْذَمَ
عِنْدَمَا لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ.»

وَقَالَ الْحَمَلُ الْمُسْكِينُ، وَهُوَ يَلْفِظُ نَفْسَهُ الْأَخِيرَ: «إِنِّي أُوَكِّدُ لَكَ أَنَّكَ مُخْطِئَةٌ، وَقَدْ
أَسَأْتُ ظَنِّكَ بِي!»
«وَكُلُّ إِنَاءٍ بِمَا فِيهِ يَنْضَحُ!»

ظِلُّ الْغَيْبِ

التفت غيبٍ وراءه عند غروب الشمس؛ فرأى خيالاً أسود طويلاً يجري خلفه، وإذا لم يفتن إلى أنه ظلُّ نفسه، تقدّم نحوه بضع خطواتٍ محاولاً إمساكه، فابتعد عنه الظلُّ بضع خطواتٍ، وأسرع الخطى ليلاحقه، ولكنَّ الظلَّ ابتعد عنه مُسرِعاً أيضاً، ثمَّ جرى نحوه فجرى الظلُّ منه كذلك، ولما أعبته الحيلة، أدار له ظهره قائلاً: «والآن فأنا بدوري سأهربُ منك، كما هربتَ أنتَ مني، يا شيطان!»
وأطلق ساقيه للريح.

وبعد أن قطع شوطاً غير طویل، تلفت وراءه، فدهش، إذ رأى الظلَّ يتعقبه، ويحتذي مثاله، ملتبصاً بقدميه.

وهذا شأنُ إلهة الحظِّ؛ اتبعتها تهربُ منك، وأهربُ منها تتبَعك!